بعض مظاهر العمران في الأندلس
من خلال كتاب نزهة المشتاق للإدريسي
(ت٥٦٠هـ/١١٦٤م)

د.محمود كامل محمد السيد عبد الكافي*

المستخلص

المظاهر العمرانية ترسم صورة واضحة لما شيده المسلمون،وما كانوا عليه من حضارة،وبراعة عمرانية في بلاد الأندلس،وما نعموا به فيها من رفاهية العيش والرخاء والازدهار الاقتصادي.ودراسة العمارة الأندلسية جديرة منا بالاهتمام؛إذ هي الآثار المادية الباقية على مر العصور.وقد شهدت مختلف مدن الأندلس نشاطًا عمرانيًا واضحًا، في صورة المنشآت الدينية والمدنية والحربية ؛وغيرها.ويهدف هذا البحث إبراز ملامح العمران الديني في الأندلس من خلال كتاب الإدريسي "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق "،وما شيد المسلمون من المنشآت الدينية،التي على رأسها المسجد ، قلب المدينة الإسلامية النابض، الذي يتعدى دوره كونه مكانًا للعبادة،إلى كونه مركزًا اجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا وتعليميًا.ومن أشهر جوامع الأندلس التي تحدث عنه الإدريسي بالتفصيل جامع قرطبة الذي لا مثيل له في مساجد المسلمين،كما تشمل الدراسة أيضًا المنشآت الدينية المسيحية، ومنها كنيسة الغراب التي تعود إلى العصر الروماني،وتستهدف الدراسة أيضًا إبراز بعض الآثار العمرانية والمدنية في مدن الأندلس، مثل القصور والدور والحمامات والنواعير والأرحاء المائية.وتكشف الدراسة أيضًا عن أهمية الأسواق والفنادق، ودورهما في ازدهار النشاط التجاري،وأخيرًا تعرض الدراسة لبعض مظاهر العمران الحربي في الأندلس،مثل الأسوار والأبواب والأبراج،وكذلك الحصون والقلاع والقصاب والرباطات .

الكلمات المفتاحية: الإدريسي ، نزهة المشتاق، الأندلس ، قرطبة، الزهراء، بجانة، ماردة، الرباط، كنيسة الغراب، الأرحاء المائية.

Some manifestations of urbanization in Andalus
Through Nozhat Al-Mushtaq for Al-Idrisi
(D. 560 AH / 1164 AD)

Dr. Mahmoud Kamel Mohamed Elsayed Abdel- Kafy

Abstract

Urban manifestations paint a clear picture of what Muslims built, girls, and gardening in the country of Andalusia, and the luxury they enjoyed in it of living, prosperity and economic prosperity. And the study of Andalusian architecture. The various cities of Andalusia have a clear urban activity, in the form of Dar al-Din and Madani. to being a social, political, economic and educational center. Among the most famous mosques in Andalusia, which Al-Idrisi talked about in detail, is the Mosque of Cordoba, which is unparalleled in Muslim mosques. The study also revealed Christian religious installations, including the Church of the Crow, which dates back to the Roman era. The study also aims to highlight some of the amazing urban and civil monuments in the cities of Andalusia. Such as palaces, roles, bathrooms, water wheels and water fountains. The study also reveals the importance of markets and hotels, and their role in commercial activity. Finally, the

◆ مدرس التاريخ الإسلامي – كلية التربية – جامعة مطروح

study presents some aspects of military construction in Andalusia, such as fences, doors and towers, as well as forts, castles, kasbahs and ribat.□

Keywords: Al-Idrisi, Nozha Al-Mushtaq, Al-Andalus, Córdoba, Al-Zahara, Pechina, Mérida, Rabat, Iglesia Al-Ghurab, páramos de agua.□

المقدمة :

يُعد الجغرافي العربي الإدريسي من أنبغ الجغرافيين العرب والمسلمين بشهادة أكابر المستشرقين،وهذه الحقيقة تجعل من مؤلفه نزهة المشتاق أحد أهم المصادر الجغرافية العالمية.ويعد الإدريسي أيضًا من أكثر الجغرافيين دقة في الوصف والتصوير في ظل عدم اكتفائه بالنقل عن الكتب فحسب،بل لأنه زار جل المناطق التي تحدث عنها وزارها بنفسه،فما بالنا من بلد نشأ فيه، وخطى فيه خطواته الأولى، وهو الأندلس.وقد كانت الأندلس جديرة بالوصف والتصوير في ظل ازدهار الحضارة الإسلامية في كثير من مدنها وقراها وحصونها العامرة التي بدا فيها مدى نضج وتطور الحضارة الإسلامية، مما جعلها واحد من أهم معابر الحضارة الإسلامية إلى أوربا.

وعلى الرغم من الاهتمام الكبير الذي أبداه الباحثون المحدثون بالإدريسي وكتابه،إلا أنه لم ينل حقه من الدراسة،خاصة فيما يتعلق بما فيه من معلومات قيمة عن مظاهر العمران في الأندلس،فكان هذا من الدوافع لهذا البحث.ومما دفعني أيضًا للاهتمام بموضوع الدراسة خلو المكتبة العربية من دراسة مماثلة ومن ثم تصديت للقيام بهذه المهمة، ناهيك عن أن الدراسات السابقة لم تسد هذه النقطة بما يكفي،وتتمثل الدراسات في ما قدمه الباحث إبراهيم السيد الناقة بعنوان "عمران قرطبة في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)من خلال كتب الرحالة والجغرافيين"الشريف الإدريسي أنموذجا"[1]،والذي اختصر في معالجته- كما يتضح من عنوانه- على قرطبة دون باقي مدن الأندلس،كما اعتمد فيه بشكل كبيرعلى النقل المصدري.أما الدراسة الثانية للباحثتين لارا محسن جبر العبيدي،وزينب فاضل مرجان، بعنوان "المظاهر العمرانية للأندلس في كتاب صبح الأعشى في صناعة الأنشا للقلقشندي(٨٢١هـ/١٤١٨م)[2]، اعتمدتا الباحثتان بشكل أساسي على ما جاء في مؤلف القلقشندي،ولا ريب أن ما وصل إلى علم القلقشندي لم يأتي من مشاهدة ومعاصرة لكن من خلال نقل وسماع بعد ضياع أغلب مدن الأندلس من يدي المسلمين،فكان وصف الإدريسي أكثر قيمة وثقة بحكم معايشة ومعاصرة الإدريسي لمجد الأندلس في عصرها الذهبي.

ولا ريب أن مثل هذه الموضوعات لا تخلو من صعوبات،سعينا للتغلب عليها،تتمثل في كثرة المصادر التي وجب علينا الرجوع اليها للتوضيح والمقارنة بين ما ورد فيها وما ورد عند الإدريسي،كما لم يخلو وصف الإدريسي للأندلس من كثير من المصطلحات الأندلسية التي حتمت علينا الرجوع لكتب متخصصة في علم اللغة والآثار للكشف عن كنه هذه المصطلحات.

وفيما يتعلق بالمنهج الذي اتبعناه،فقد سرنا على منهج البحث التاريخي بمختلف أدواته من وصف،وتحليل،واستقراء ،واستنباط ،ومقارنة؛آملين أن نعطي كتاب "نزهة المشتاق" حقه الذي قصر فيه الباحثون العرب والمسلمين.

وقسمت الدراسة إلى مقدمة،وتمهيد،وثلاثة مباحث.وتضمنت المقدمة موضوع الدراسة، وأهميتها ومنهج الدراسة والدراسات السابقة.وخصصت التمهيد للتعريف بالإدريسي وكتابه نزهة المشتاق.وأفردت المبحث الأول لإلقاء الضوء على بعض مظاهر العمران الديني في الأندلس،وخصصت المبحث الثاني في الحديث عن بعض مظاهر العمران المدني في الأندلس،وأشرت في المبحث الثالث إلى بعض مظاهر العمران الحربي في الأندلس.وختمت الدراسة

---

(١) نشر بالمؤتمر العلمي الدولي الخامس (الحضارة والتراث العربي ابداع وأصالة)د.ت

(٢) مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية ،العراق،المجلد العاشر،العدد الرابع،٢٠٢٠

بخاتمة تُجمل اغراضها واستنتاجاتها،ثم أوردت بعض الخرائط الأصلية لخارطة العالم للإدريسي وخارطة تشمل بعض مدن موضوع بالدراسة.

تمهيد :

الإدريسي وكتابه نزهة المشتاق

اهتم الجغرافيون -من المستشرقين وغيرهم- بكتاب الإدريسي اهتمامًا كبيرًا،ولا عجب؛ فهو أوفى كتاب جغرافي تركه المسلمون،وما يحتويه من وصف دقيق للبلدان،وتحديد للمسافات،الأمر الذي يجعله أعظم وثيقة علمية جغرافية. حيث وصف المستشرق كراتشكوفسكي كتاب (نزهة المشتاق)إنه أفضل رسالة في الجغرافيا وصلت إلينا من العصور الوسطى، سواء من الشرق أو الغرب،[٣] ويضيف ألدوميلي إن الإدريسي ربما كان أعظم جغرافيي العالم الإسلامي [٤] وقد لقب الإدريسي بـ "إسطرابون العرب"[٥] وليس بين الجغرافيين المسلمين من خطىّ بشهرة الشريف الإدريسي، ولم يظفر واحد منهم بما ظفر به من دراسات[٦]

والإدريسي هو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس بن الحسن(ينتسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب)،ولد سنة ٤٩٣ هـ/ ١٠٩٩م،في مدينة سبتة، بالمغرب الأقصى،وتوفي فيها عام ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م [٧].ويرجع لقبه الإدريسي نسبة إلى جده الأعلى إدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة ١٧٢-٣٧٥هـ /٧٨٨- ٩٨٥ م بفاس [٨]

انتقل الإدريسي صغيرًا مع عائلته إلى الحاضرة قرطبة،التي كانت آنذاك مركزًا ثقافياً كبيرًا. وفيها نشأ،وتلقى العلم في مراكزها العلمية، حيث شغف بالتاريخ والجغرافيا.ولذا كان وصف قرطبة في كتابه وصف الخبير بالمدينة، المسجل لانطباعاته المباشرة عنها [٩]

ويبدو أن مولد الإدريسي في سبتة،هو الذي حفزه إلى أن يتخذ منها نقطة انطلاق لرحلات كثيرة له في بلاد المغرب التي يصفها بدقة، أما مقامه بعد ذلك في قرطبة فمكنه من الطواف في بلاد الأندلس.وإضافة إلى هذا وذاك،كانت له رحلات في مصر والمشرق الإسلامي وآسيا الصغرى أكسبته علما زاخرًا وشهرة عريضة، كانت سببًا لدعوة ملك صقلية النورماندي روجار الثاني[١٠]

---

(٣) تاريخ الأدب الجغرافي العربي،ترجمة صلاح الدين هاشم، القسم الأول،الإدارة الثقافة في جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٨٧، ص٢٩٤، أحمد فؤاد باشا، «العلوم الجغرافية في التراث الإسلامي»، مجلة المنهل،عدد متخصص بالجغرافية، جدة، ١٩٩٧،ص١٢٠

(٤) العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي،نقله إلى العربية عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى،دار القلم ، بيروت، ١٩٦٢،ص٣٨٦-٣٨٧

(٥) آنجل جنثالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس،مكتبة الثقافة الدينية،د.ت،ص ٣١٤

(٦) حسين مؤنس،تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ،ط٢،مكتبة مدبولي،القاهرة ،١٩٨٦، ص١٦٧

(٧) محمد السيد غلاب،الجغرافيون المسلمون ودورهم في تطور الفكر الجغرافي،بحوث المؤتمر الإسلامي الأول،المجلد الثالث،مركز البحوث بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،الرياض، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م، ص. ١٤٤

(٨) أحمد سوسة،الشريف الإدريسي في الجغرافيا العربية،نقابة المهندسين العراقيين،بغداد، ١٩٧٤،ص٢٧٣

(٩) عبد الرحمن حميدة،أعلام الجغرافيين العرب،دار الفكر العربي، دمشق،ط.٢، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠ م،ص. ٣١٦.

(١٠) روجار الثاني Roger باللاتينة ، Ruggero بالإيطالية حاكم صقلية عام ١١٣٠ميلاديا ،وهو أشهر ملوك النورمان ،وهو الذي وحد ممتلكات النورمان في جنوب إيطاليا وصقلية،وانتزع لنفسه من البابا لقب ملك صقلية ،ونظرا لما لقيه من معاداة البيزنطيين وأباطرة الأمبراطورية الرومانية المقدسة الطامعين في مملكته،فإن روجار سار على سياسة أبيه (روجار الأول) في تجنيد المسلمين والاعتماد عليهم في مواجهة أعدائه.ابن الأثير، الكامل في التاريخ،دار صادر،بيروت، ١٩٨٠،ج٨،ص١٥٩،أمين توفيق الطيبي،دراسات في تاريخ صقلية الإسلامية،مكتبة الجماهيرية ، طرابلس،١٩٩٠،ص٢٤-٢٥،المجلة العربية للثقافة،مجلة سنوية محكمة ،تونس،العدد ٦٣ لسنة ٢٠٠٧،٣٤،ص١٣٣

له إلى بلاطه، فعبر البحر إليها عام ٥٢٨ هـ/ ١١٣٨ م،وأقام بها حتى وفاة روجار عام ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤م،ثم رجع إلى مسقط رأسه سبتة، وتوفي بها عام ٥٦٠ هـ/ ١١٦٤م.

أما عن ظروف انتقاله إلى صقلية فعندما آلت مقاليد الحكم في جزيرة صقلية إلى روجار الثاني، بعد طرد المسلمين من الجزيرة،ورأى ذلك الملك ما عليه أهل صقلية من المسلمين من الحضارة،فتقرب إليهم رغبة في الإفادة من معارفهم. وأهتم بصفة خاصة بعلم الجغرافيا، فسأل عن أبرزعلماء ذلك العصر فأرشدوه إلى الشريف الإدريسي،فدعاه الملك للإقامة في صقلية بغية الإفادة من علمه،مقلدا بذلك الأمراء المسلمين، وتقريبهم العلماء والأدباء، وإغداقهم العطايا عليهم إظهارًا لقوة الدولة وعظمة السلطان،فلبى الدعوة،والتحق ببلاط روجار الثاني،وصنف له كتابا في جغرافية العالم سماه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)،وأرفق به عدة خرائط توضيحية،[١١] وقد سُمِّي كتابه في بعض المصادر كتاب روجرا أو بكتاب روجاري.[١٢]

ويذكر الإدريسي نفسه أنه ألف الكتاب تلبية لطلب الملك روجار،ويقول في مقدمة كتابه عن الملك روجر" إنه لما اتسعت أعمال مملكته... أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة، ويقتلها يقينا وخبرة ،ويعلم حدودها ومسالكها برًا وبحرًا، وفي أي إقليم هي، وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها، مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار في الأقاليم السبعة.." [١٣]

وكانت للإدريسي -مع نبوغه في العلوم الجغرافية ورسم الخرائط والرحلات- اهتمامات أخرى،تؤكد تنوع ثقافته،وتعدد مجالات ميوله؛إذ كان مهتمًا بالصيدلة والنباتات والطب،علاوة على الأدب وإجادة للشعر[١٤]

وللإدريسي غير كتابه المشهور مؤلفات أخرى في غيرعلم الجغرافية ،مثل كتاب (المفردات)، وهو كتاب في الصيدلة والأدوية، أما المصنفات الجغرافية فنذكر منها: (روض الأنس ونزهة النفس)،الذي يعرف باسم (المسالك والممالك)،وكتاب (روض الفرج ونزهة المهَج)،وهو تلخيص لكتاب(روض الأنس) السابق ذكره،وقيل إنه مختصر لكتاب(نزهة المشتاق).وكتاب(الجامع لصفات أشتات النبات)،ومنه نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية [١٥]

واهتم الإدريسي بكتابات الجغرافيين الأوائل،من منطلق أن المعرفة تراكمية،وأفاد من اليونانيين والرومان والمسلمين، وبعض من سبقه في هذا المجال. وأهم من أخذ عنهم العالم اليوناني (بطليموس)،الذي أفاد من وصفه للعالم وتقسيمه الأرض إلى سبعة أقاليم،أي أحزمة عريضة فوق خط الاستواء، غير أن الإدريسي أضاف أن قسم كل إقليم إلى عشرة أقسام رأسية،من الشرق إلى الغرب،وأعد لكل قسم من تلك الأقسام خريطة.[١٦]

وعبارات الإدريسي عن بلاد الأندلس وشمال وبلاد المغرب ومصر وبلاد الشام،وآسيا الصغرى،وسائر بلدان الشرق،وأجزاء من أوروبا الغربية- وبخاصة سواحل إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وصقلية تتسم بالإسهاب والتفصيل،وتوحي للقارئ بأنه زار هذه المناطق فعلا،خاصة أنه أحيانا يستخدم عبارات من قبيل: "وقد شاهدت"، أو" وقد رأيناه عيانا". ويبرز هذا على وجه الخصوص عند الحديث عن الأندلس وصقلية ؛لطول المدة التي قضاها هناك.

مما سبق يتضح أن الإدريسي أفاد من المعاينة،التي يرجع إليها قسم كبير من مادة مؤلفه. حيث يعتبر مصدرًا مهما من مصادر الباحثين في علمي الجغرافية والتاريخ.

---

[١١] سوسة، الشريف الإدريسي في الجغرافيا، ص. ٢٦٧.

[١٢] شوقي ضيف،الرحلات، فنون الأدب العربي،الفن القصصي٤،ط٣،دار المعارف،القاهرة،١٩٥٦،ص١٩

[١٣] الإدريسي،نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،نشر مكتبة الثقافة الدينية،القاهرة،د.ت، ص٦

[١٤] سوسة،المرجع السابق،ص٢٦٧.

[١٥] محمد عبد الغني،الشريف الإدريسي أشهر جغرافيي العرب والإسلام،الهيئة العامة للتأليف والنشر،١٩٧٠ ،ص١٢

[١٦] حسين مؤنس،تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس،ص ١٦٨-١٧٠

وتميزالإدريسي بدقة وصفه لبلاد الأندلس ويدل على ذلك قوله :" ولنرجع الآن الى ذكر الأندلس، ووصف بلادها،ونذكر طرقاتها وموضوع جهاتها ومقتضى حالاتها ومباديء أوديتها ومواقعها من البحر ومشهور جبالها وعجائب بقعها "[١٧]

أما عن طريقة عرضه للمعلومات الجغرافية،ووصفه لتلك الأقاليم السبعة للعالم المعمور وأقسامها، فإنه كان يبدأ بالقسم الأول ثم الذي يليه حتى نهاية كل إقليم، وهكذا في الأقاليم السبعة جميعها، بداية من الشرق وانتهاءً بالغرب.ويذكر أستاذنا الحريري إن الإدريسي في سياق عرضه للبيانات الجغرافية حدد المنهج الذي التزم به واتبعه،وأنه اتبع في وصف كل جزء من أجزاء الأقاليم السبعة منهجا محددا ،حاول أن يجمع فيه الموضوعات المتشابهة، وكان يعرض لما يحتويه كل منها من البلاد والأمم والعجائب،وما تشتمل عليه ممالكها وطرقاتها ومسالكها، ومبلغ فراسخها وأميالها، ومجاري أنهارها وعلو بحارها.وكذلك حال الأقاليم الفرعية من الأقاليم السبعة،وما لكل جزء منها من الكور والقرى والحصون والعمارات الأخرى[١٨]

ويؤخذ على الإدريسي أنه لم يهتم بذكر أية بيانات رقمية،فلا يعثر فيما أورده على إحصاء للسكان،أو مقدارٍ ما ينتجونه من صناعة أو منتجات زراعية.وهو في هذا يميل إلى الاتجاه العام الذي كان سائدا عند الجغرافيين المسلمين الذين من النادر أن يعثر القارئ عندهم على أية بيانات أواحصائيات من هذا القبيل[١٩]

ويغلب المنهج الوصفي التحليلي على كتابات الإدريسي عن جغرافية المدن،التي لا يُصدر فيها أحكاما أو يبني نظريات على نتائج كما عند ابن خلدون -مثلا- الذي أفاد من الإدريسي في الجانب الإقليمي.ومما يميز منهج الإدريسي أيضا التسلسل المنطقي في وصف معظم المدن التي تعرض لها، فنجده أولا يحدد موقعها، ثم يسجل أهم معالمها الطبيعية، فيصف النهر الذي تقع عليه، أو البحر القريب منها،أو أية ظاهرة تتميز بها،مع ذكر المسافة بينها وبين المدن المجاورة.ويتبع المنهج التاريخي في التعريف بتاريخ المدينة، وما شهدته من أحداث، وأخيرا يصف أهلها وعاداتهم وتقاليدهم وطباعهم ونشاطهم الاقتصادي ومظاهرعمرانها مما يضفي على وصفه أهمية كبيرة بالنسبة للجوانب الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية .

ومن المعروف أن الجغرافية الاقتصادية فرع رئيس من الجغرافية البشرية، ولعل استطراد الإدريسي في حديثه عنها وعن فروعها- كغيره من علماء عصره- يرجع إلى صلتها المباشرة بحياة الناس ومعاشهم، ولهذا نجد للأسواق العامة والخاصة نصيبًا موفورًا[٢٠].

وبالإضافة لعناية الإدريسي بالحديث عن المسلمين،نجده اهتم أيضًا بأصحاب العقائد الأخرى؛ فقد تحدث عن تجمعات اليهود في بعض مدن الأندلس، وذكر أنهم يسكنون في جوف المدينة متحصنين،ولا يسمحون للمسلمين بدخول أحيائهم[٢١] أما عن عنايته بالجانب اللغوي فقد

---

(١٧) الإدريسي،نزهة المشتاق ،المجلد ٢،ص ٥٣٥

(١٨) محمد مرسي الحريري، الشريف الإدريسي ودور الرحلة في جغرافيته،دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية، ١٩٨٥، ص١٢-١٣

(١٩) الحريري،نفسه، ص٢٠.

(٢٠) الإدريسي،نفسه، ص١٣٩

(٢١) نفسه،ص٥٧١.

كان الإدريسي معجباً بلغة أهل شلب[٢٢] القديمة الذين كانوا من اليمن،ولسانهم عربي مبين،فهم فصحاء نبلاء [٢٣]

بعد ما تقدم، سيحاول الباحث أن يعرض بعض مظاهر العمران في الأندلس من خلال كتاب نزهة المشتاق وإبراز أهمية هذا الكتاب في هذا الصدد

أولاً: بعض مظاهر العمران الديني في الأندلس من خلال نزهة المشتاق

المساجد:

حرص المسلمون في بلاد الأندلس- كما في سائر البلاد التي دخلها الإسلام-على تشييد المنشآت الدينية،التي على رأسها المسجد، قلب المدينة الإسلامية النابض،الذي يتعدى دوره كونه مكانًا للعبادة، إلى كونه مركزًا اجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا وتعليميًا؛ فلا غرو في أن كان على رأس الأولويات عند تشييد المدن والتخطيط العمراني لها سواء للمدن المستحدثة التي أنشأها المسلمون أو المدن القديمة السابقة على الإسلام التي فتحها المسلمون واضفوا عليها الطابع الإسلامي ببناء المسجد الجامع أو المساجد الأخرى.

١- المسجد الجامع بقرطبة:

أشهر جوامع الأندلس على الاطلاق،وقد تحدث عنه الإدريسي بالتفصيل،وأجاد في وصفه،فأورده بأسلوب بلاغي رفيع،حيث أفاد بأنه لا مثيل له في مساجد المسلمين بنية وتنميقا وطولاً وعرضاً.طول هذا الجامع مائة باع[٢٤]،أي أربعمائة ذراع،وعرضه ثمانون باعًا،أي ثلاثمائة وعشرون ذراعًا،ووصف الإدريسي الجامع بأن نصفه مسقوف،وهو بيت الصلاة، والنصف الآخر مكشوف للهواء وهو الصحن.وأحصى الإدريسي عدد أقواس أو عقود السقف ،فقال:"وعدد قسي مسقفه تسعة عشر قوساً،وتبلغ سواريه[٢٥](أعمدته)-سواري مسقفه وسواري قبلته صغاراً وكباراً،وسواري القبة الكبيرة -ألف سارية-وفيه مائة وثلاث عشرة ثريا[٢٦] للوقيد،أي منارة يُنار بها،أكبرها واحدة تحمل ألف مصباح،وأصغرها تحمل اثني عشر مصباحاً [٢٧]

---

[٢٢] شلب Silves وهي مدينة بغرب الأندلس،وقاعدة كورة أكشونية وتقع في الناحية القبلية من مدينة باجة بينها وبين باجة ثلاثة أيام،وهي غربي قرطبة، وبينها وبين قرطبة عشرة أيام،وبينها وبين شنترين خمسة أيام.الإدريسي،نفسه،ص٥٤٣، ياقوت الحموي(شهاب الدين ياقوت الحموي البغدادي(٦٢٦هـ)،معجم البلدان،دار صادر،بيروت،١٩٧٩،ص١٠٥٦، الحميري،الروض المعطار في خبر الأقطار،ط٢،تحقيق د. إحسان عباس،مطابع هيدلبرغ،بيروت،١٩٨٤،ص٣٤٢

[٢٣] محمد عبد الغني،الشريف الإدريسي أشهر جغرافيي العرب،ص١٣٦.

[٢٤] الباع يساوي أربعة أذرع، أي حوالى مترين، ويبلغ معدل طول الذراع حوالي أربعة وخمسين سنتيمترًا ،أي حوالي نصف متر. فالترهنتيس،المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمه عن الألمانية، الدكتور كامل العسيلي، منشورات الجامعة الأردنية،عمان،١٩٧٠،ص٨٢-٨٣.

[٢٥] سواري جمع سارية.مصطلح شاع في بلاد المغرب والأندلس للدلالة على القائمة الأسطوانية أو العمود الصغير المصنوع،سواء من الرخام أم الزجاج أو الخشب أو الحجر أو الجص.وقد خلط مؤرخو العرب دائما بين استعمالي سارية وعمود؛فكلمة عمود هي اصطلاح كلي يعني العمود بمعناه الذي نفهمه أما السارية فهي تقوم بالدور نفسه في التدعيم ولكن لا تستعمل إلا إذا أراد المؤلف أن يؤكد أهمية العمود أو القائمة الأسطوانية،مثل عمود السواري بالإسكندرية، ومعناه: العمود الأعظم بين القوائم الاسطوانية.ابن جبير(أبو الحسن محمد أحمد الكناني(ت ٦١٤هـ)رحلة ابن جبير، دار صادر،بيروت،د.ت، ص١٤، السيد عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور في الأندلس ،مؤسسة شباب الجامعة،الإسكندرية، ١٩٨٦،ص١٧،مجموعة كتاب وباحثين،فن العمارة الإسلامية اتجاهات وتأثيرات،وكالة الصحافة الغربية،القاهرة ٢٠٢٠،ص٢٠٢- ٢٠٥.

[٢٦] الثريا : مصباح كبير للإضاءة H.pères, La poesic andalouse en arabe classique au xl siècle paris,1937.p,129

[٢٧] الأدريسي،نفسه،ص ٥٧٥

أما سقف الجامع فكله سماوات[٢٨] خشب مسمرة في جوائز سقفه(Jacena)(أي في العروق الخشبية الطولية في السقف)،وجميع خشب هذا المسجد الجامع من عيدان الصنوبر[٢٩] الطرطوشي الشهير.وارتفاع حد الجائزة(أي شق اللوحة الواحدة)منه شبر[٣٠] في عرض شبر إلا ثلاثة أصابع،وطول كل جائزة منها سبعة وثلاثون شبرا،وبين الجائزة والجائزة مسافة جائزة.[٣١]

ويصف الإدريسي السماوات وصفاً دقيقاً بأنها مسطحة،وفيها ضروب الصنعة،من الضروب المسدسة،والمؤربي وهي صنع الفص[٣٢](الفسيفساء)، وصنع الدوائر،لا يشبه بعضها بعضا.بل إن كل سماء منها مكتفية بما فيها من صنائع قد أحكم ترتيبها ، وأبدع تلوينها بألوان زاهية مختلفة،حتى إذا نظر إليها الناظر أراحت النفس من كثرة إتقانها ومختلف ألوانها.[٣٣]

وأفادنا الإدريسي بأن سعة كل بلاط(أي رواق)من بلاطات مسقفه ثلاثة وثلاثون شبراً ،وبين العمود والعمود خمسة عشر شبراً[٣٤]،ولكل عمود منها رأس رخام وقاعدة رخام،وقد عقد بين العمود والعمود على أعلى الرأس قسي غريبة،فوقها قسي أخر على عمد من الحجر المنجور متقنة. وقد جصص الكل منها بالجص والجير، وزينت عليها بحور مستديرة بارزة، بينها ضروب صناعات الفص المصبوغ، وتحت كل سماء منها إفريزًا أي (شريط زخرفي بارز، قد يمتد مستقيما أو ينحني) من الخشب كتب عليه آيات قرآنية[٣٥].

وأوضح الإدريسي أن لهذا المسجد الجامع قبلة تُعجز الواصفين أوصافُها،وأفاد بأن اتقانها وتنميقها يبهرالعقول،حيث زينت بالفسيفساء المذهب والملون،مما بعث به الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع الى الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله(٣٠٠هـ-٣٥٠هـ/٩١٢م-٩٦١م)[٣٦]

---

(٢٨) السماوات بالإسبانية zaqui zami جمع سما أي سقف : وهي الألواح الخشبية المسطحة التي تغطي سقف الجامع ، السيد عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور في الأندلس ، ص ١٣

Dozy,et Engelman Gloss, des mots espagnols et portuga mosque de medine,1947,p.83

(٢٩) وكانت للإدريسي أيضًا إشارات موجزة للغاية إلى مدن اشتهرت ببناء المراكب الكبار من خشب جبالها. وهو خشب الصنوبر الذي لا نظير له في الطول والغلظ، ومنه تُتخذ الصواري. ووصفه الإدريسي بأنه أحمر صافي البشرة لا يتغير سريعًا، ولا يفعل فيه السوس ما يفعله في غيره،الإدريسي، نفسه،ص٥٥٥

(٣٠) القياسات القديمة كانت بوحدات الشبر و الإصبع والذراع والباع،والشبر يساوي ٢٣ سنتمتر تقريبا،أما الإصبع فيبلغ حوالي ٢.٠٧٨سم ،أو ٢.٢٥٢سم تقريبا،فالترهنتيس،المكاييل والأوزان الإسلامية،ص٨١،محمد رواس قلعجي وحامد صادق قنيبي،معجم لغة الفقهاء،دار النفائس للطباعة ،بيروت،١٩٨٨،،ج١،ص٢٥٦

(٣١) الإدريسي،نفسه،ص٥٧٥-٥٧٦

(٣٢) الفص هو المعروف في الشرق بالفسيفساء،ويعرف في الأندلس بالزليجي،وهو ذو ألوان عجيبة،ويقوم مقام الرخام الملون الذي يتخذه أهل المشرق في زخرفة بيوتهم،السيد عبد العزيز سالم،حضارة الإسلام في الأندلس، ص ٤٠

(٣٣) الإدريسي،نفسه،ص٥٧٦

(٣٤) ويفيد العذري بأن عدد بلاطات-أي أروقة- الجامع الأوسط بلغت أحد عشر بلاطًا،بعد الزيادة أو التوسعة في عهد الحاجب المنصور،والصواب أن الزيادات كانت في عهد الأمير عبد الرحمن،وكان عددها قبل ذلك تسع بلاطات،نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار و تنويع الآثاروالبستان في غرائب البلدان و المسالك الى جميع الممالك،تحقيق د. عبد العزيز الأهواني ، مدريد، ١٩٦٥، ص١٢٣،عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس،مؤسسة شباب الجامعة،الإسكندرية، ١٩٩٧،ج١،ص ٢٩٢

(٣٥) الإدريسي، نفسه،ص٥٧٦ ، باسيليو بابون مالدونادو،عمارة المساجد في الأندلس قرطبة ومساجدها ،ط١، ترجمة د.علي إبراهيم منوفي،هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ٢٠١١م ،ص ١٧٩

(٣٦) الإدريسي،نفسه،ص٥٧٦

ويبين الإدريسي أن بواجهة المحراب سبع قسي قائمة على عمد، وطول كل قوس أشف من قامة[٣٧]،وكل هذه القسي مزججة صنعة القرط(أي مفصصة)[٣٨]،قد أعيت الروم(البيزنطيين)والمسلمين بغريب أعمالها ودقيق تكوينها ووضعها،وعلى أعلى الكل كتابان مسجونان بين بحرين من الفص المذهب في أرض الزجاج اللازوردي، وكذلك تحت هذه القسي التي ذكرناها كتابان مثل الأولين مسجونان بالفص المذهب في أرض اللازورد[٣٩]

ويشير الإدريسي إلى كثرة أنواع الزينة والنقوش بالمحراب،ويضيف أن على ناحيتي المحراب توجد أربعة أعمدة: اثنان أخضران واثنان زرزوريان[٤٠]،لا تُقوَّم بمال،وعلى رأس المحراب خصة(كتلة)رخام قطعة واحدة مشوكة محفورة،منمقة بأبدع التنميق من الذهب واللازورد وسائر الألوان .وعلى المحراب مما استدار به حظيرة خشب بها من أنواع النقش كل غريبة[٤١].

وتكلم الإدريسي عن المنبر ووصفه بأنه يقع يمين المحراب وأنه ليس بمعمور الأرض مثله صنعة،وخشبه من الأبنوس والبقس[٤٢] وعود المجمر.وقيل أن صناعته استغرقت سبع سنين،وكان عدد من قام بصناعته ستة رجال غير من يخدمهم ،ولكل صانع منهم في اليوم نصف مثقال محمدي.[٤٣]

وأشار الإدريسي إلى وجود بيت(مخزن)يسار المحراب كان مخصصاً لحفظ العِدَد والطسوت والحسك(أداة من نحاس لحمل شمع الإنارة)الخاص بوقيد الشمع في كل ليلة سبعة وعشرين من رمضان،كما كان يحفظ فيها " مصحف يرفعه رجلان لثقله،فيه أربع أوراق من مصحف عثمان بن عفان،وهو المصحف الذي خطه بيمينه وفيه نقط من دمه[٤٤]،وهذا المصحف يخرج في

---

(٣٧) القامة وحدة قياس طولية وتعني الباع والباع يساوي أربعة أذرع،أي حوالى مترين ويبلغ معدل طول الذراع حوالي أربعة وخمسين سنتيمترًا،أي حوالي نصف متر. فالترهنتيس،المكاييل والأوزان الإسلامية،ص٨٢

(٣٨) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس،ج١، ص٣٩٩

(٣٩) الإدريسي،نفسه،ص٥٧٦

(٤٠) زورزريان ذُكرت هذه الكلمة في بعض مصادر أخرى لازورديان وهي كلمة فارسية،من الأحجار الكريمة، أزرق سماوي اللون،وذكر البيروني أن الناس كانوا يطلقون عليه اسم ارميناقون،وتعني حجر ارميني،وذلك لشبهه حجرًا بهذا الاسم كان يجلب من أرمينية.البيروني(محمد بن أحمد الخوارزمي(ت.٤٤٠ هـ)،الجماهر في الجواهر،تحقيق يوسف الهادي،ط ١،شركة النشر العلمي،ايران، ١٩٩٥ م، ص٣١٠-٣١١؛ابن الوردي(سراج الدين عمر بن المظفر(ت٨٥٢هـ)،خريدة العجائب وفريدة الغرائب،تقديم دكتور حماه الله ولد السالم،دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٧١،ص٣٦ ؛المقري،(الشيخ أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، إحسان عباس،بيروت،د.ت، ج٢،ص٩٦

(٤١) الإدريسي،نفسه،ص ٥٧٧

(٤٢) شجرة كالآس ورقًا وحبًا تتخذ منه المغالق والابواب لمتانته وصلابته؛ابن غالب،نص أندلسي جديد قطعة من كتاب فرحة الأنفس عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة،تحقيق لطفي عبد البديع،مجلة معهد المخطوطات العربية،المجلد الأول ،١٩٥٥م،ص٢٨٦؛الزبيدي(محمد مرتضى الحسيني (ت.١٢٥٠هـ)،معجم اسماء النباتات الواردة في تاج العروس، جمع وتحقيق محمود مصطفى الدمياطي،القاهرة،مطابع كوستا تسوماس ١٩٦٦م،ص٢١

(٤٣) تنسب الدنانيرالمحمدية إلى الخليفة الموحدي محمد بن الناصر،والأوقية الواحدة تساوي ٢٣ درهما،ويقال أيضا أن الدنانير المحمدية،تنسب إلي مدينة المحمدية بالعراق،وأخري تنسب إلي مدينة المحمدية بالمغرب الأقصي،المقري، نفح الطيب، ج٢، ص٩٦؛ابن الحكيم(أبي الحسن علي بن يوسف بن الحكيم (ت ٧٢٤هـ)،الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، حققه وذيله بجامع مفرداته أ. د/ حسين مؤنس، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٠، م، والكتاب له عنوان أخر علي الغلاف باللغة الإسبانية،Regimen de la Casa de la Moneda ،ص ٨٩،هامش ٥

(٤٤) تضاربت الأقوال حول مصحف الخليفة عثمان بن عفان الذي كان بين يديه عند مقتله هو نفسه الذي دخل الأندلس وبقى زمنا طويلا في جامع قرطبة،فتذكر الأستاذة الدكتورة سحر عبد العزيز سالم أن مصحف عثمان الذي كان يقرأ فيه يوم استشاده إنما كان يشتمل على أربع ورقات فقط منه،أما بقية أوراقه فقد تكون نسخت على نفس نظام المصحف العثماني،سحر عبد العزيز سالم، أضواء على مصحف عثمان ورحلته شرقا وغربا، مؤسسة شباب الجامعة،الأسكندرية،د.ت،ص٣٤-٥٢؛وعن كيفية انتقال المصحف إلى الأندلس فيذكر بعض المؤرخين أنه لما استقرعبد الرحمن الداخل في بلاد المغرب الإسلامي كانت شقيقته أم الإصبغ تبعث إليه من الشام شيئا،إثر شيء

صبيحة كل يوم،ويتولى إخراجه رجلان من قَوَمَة المسجد، وأمامهم رجل ثالث بشمعة،وللمصحف غشاء بديع الصنعة منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقه وأعجبه،وله بموضع المصلى كرسي يوضع عليه ويتولى الإمام قراءة نصف حزب منه ثم يرد إلى موضعه [٤٥].

وقد وصف الإدريسي الساباط[٤٦] بأنه ممر مسقوف بين حائطين الجامع نافذ يربط بين الجامع وقصرالإمارة أو الخلافة[٤٧] وبقوله:وعن يمين المحراب والمنبر باب يفضي إلى القصر بين حائطي الجامع،في ساباط متصل،وفي هذا الساباط ثمانية أبواب،منها أربعة تنغلق من جهة القصر وأربعة تنغلق من جهة الجامع.[٤٨]

أما أبواب جامع قرطبة،فيذكرالإدريسي:"أن له عشرون باباً مصفحة بصفائح النحاس، وفي كل باب منها حلقتان في غاية من الإتقان،وعلى وجه كل باب منها في الحائط ضروب من الفسيفساء المتخذ من الآجُرّ الأحمر المحكوك، وأجناس مختلفة من الصناعات والترييش وصدور البزاة (جنس من الصقور).[٤٩]

كما انفرد الإدريسي في دقة وصفه للمسجد الجامع بمعلومات وأرقام،منها ما قاله عن صومعة الجامع (المئذنة)وأنها تقع ناحية اليسار.والمئذنة هي اللفظ الأكثر شيوعا اليوم أما الصومعة فهي اللفظة التي كانت تطلق على المآذن الأندلسية[٥٠] ويصف الإدريسي الصومعة بأنها غريبة الصنعة،جليلة الأعمال،رائقة الأشكال،بلغ ارتفاعها مائة ذراع بالذراع الرشاشي[٥١]،منها ثمانون ذراعا إلى الموضع الذي يقف عليه المؤذن بقدميه، ومن هناك إلى أعلاها عشرون ذراعا .ويُصعد إلى أعلى هذه المنارة بدرجين، أحدهما من الجانب الغربي والثاني من الجانب الشرقي، وقد وصف الإدريسي درجي المئذنة فقال:"إذا افترق الصاعدان أسفل الصومعة لم يجتمعا إلا إذا وصلا الأعلى منها"[٥٢].وقد بنيت الصومعة من كتل حجرية، وبطنت واجهاتها بالكذان، وهو حجر

بزخائر الأسرة الحاكمة في دمشق فكان من جملة ما بعثت به المصحف العثماني،محمود آغا بو عياد،الرحلة العجيبة لنسخة من مصحف الخليفة عثمان في أرجاء المغرب والأندلس، موفم للنشر،الجزائر،٢٠٠٧،ص٦٢

[٤٥] الإدريسي ،نفسه،ص٥٧٧-٥٧٨

[٤٦] الساباط :الجمع سوابيط وساباطات،وهي السقيفة بين حائطين تحتها ممر نافذ. الفارابي(أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم (ت ٣٥٠هـ)،معجم ديوان الأدب،تحقيق د.أحمد مختار عمر،مراجعة د. ابراهيم انيس،مجمع اللغة العربية ،ج ١، ص٣٧٠، إبراهيم أنيس و محمد خلف الله وأخرون: المعجم الوسيط، إصدار مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، القاهرة، ٢٠٠٤ م، مادة ساباط، ص ٩٥٠

[٤٧] كان السباط يؤدي وظيفة حيوية في الأندلس وهي الحماية و الأمن للحكام، حيث بنى الخلفاء والأمراء الجوامع بالأندلس، و حرصًا منهم على أن يحيطوا أنفسهم بأسباب السلامة، فأنشأوا بذلك ممشى مظللا (سباطا) يربط ما بين الجامع والقصر، تقليدا بذلك للأمويين بالشام وكان لارتباط الجامع بالقصر في الأندلس علاقة التجاور بحيث يسهل التوجه و التنقل من القصر إلى الجامع. كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ط ٥، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس، دار العلم للملايين،بيروت، ١٩٦٨ م، ص٢٩،محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية،عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٨ م، ص ١٦٠

(٤٨) الإدريسي،نفسه،ص ٥٧٨

(٤٩) نفسه،ص ٥٧٨

(٥٠) باسيليو مالدنادو ،عمارة المساجد في الأندلس " مدخل عام" ،ط١، ترجمة على ابراهيم منوفي،أبو ظبي للثقافة والتراث ،٢٠١١م،ص٦٥

(٥١) الذراع الرشاشي نسبة إلى الرشاش الذي كان يُتخذ ذراعه وحدة لقياس الطول والمساحة، وينسب إلى محمد بن الفرج، وكان من اثنين وثلاثين إصبعًا،ويعادل حوالي أربعة وخمسين سنتيمترًا أي أن ارتفاع المأذنة ٥٠مترًا تقريبا ، ابن غالب، نص أندلسي جديد قطعة من كتاب فرحة الأنفس،ص٣٠٠، كمال أبو مصطفى ، المرجع السابق،ص ٣٣٢؛ فالترهنتيس،المكاييل والأوزان الإسلامية،ص٨٨

ALLVÉ, JOAQUÍN,« Notas de metrología hispano - árabe . I : El codo en la España musulmana » , Al - Andalus , XLI (1976,pp.344-346)

[٥٢] الإدريسي،نفسه ،ص٥٧٨

جيري سهل النخر والتآكل [٥٣]،منقوش من وجه الأرض إلى أعلى الصومعة صنع مقسمة ،تحتوي على أنواع من الصنع والتزويق والكتابة والنقوش الملونة ،ويتسع الوصف للصومعة،فيذكرالإدريسي في سياق وصفه:وبالأوجه الأربعة الدائرة من الصومعة صفان من قسي دائرة على عمد الرخام الحسن [٥٤].وقد أحصى الإدريسي أعمدة الصومعة أو المئذنة فقال:"إن عددها من الداخل والخارج ثلاثمائة عمود بين صغير وكبير،وفي أعلى الصومعة بيت(أي غرفة) له أربعة أبواب مغلقة،يبيت فيه كل ليلة مؤذنان.وللصومعة ستة عشر مؤذنا يؤذنون فيها بالدولة(أي مناوبة)،لكل يوم مؤذنان على توال،وفي أعلى الصومعة على القبة التي على البيت ثلاث تفاحات ذهب،واثنتان من فضة،وأوراق نبات السوسنية،تسع الكبيرة من هذه التفاحات ستون رطلاً زيتا.ويخدم الجامع كله ستون رجلا،وعليهم قائم أو مشرف ينظر في أمورهم [٥٥].

٢- جامع الرايات:

أشار الإدريسي إلى أن موقعه في الجزيرة الخضراء [٥٦] على باب البحر،ويضيف بأن مؤسسه هو طارق بن زياد في بداية فتحه للأندلس،وسُمي الجامع بهذا الاسم لكثرة رايات المسلمين في هذا المكان عند المشورة وتداول الرأي [٥٧]،وبهذا كان المسجد الجامع على رأس المؤسسات الدينية التعليمية التي اعتمدها المسلمون في صقل وبناء الشخصية الإسلامية ،ومما لا شك فيه أن المسجد الجامع شكل منذ البداية مدرسة الحياة لدى المسلمين، ففيه تقام الصلاة، وتُعرف أصول الشريعة،وفيه كانت تعالج أمور شتى من أمور المسلمين في دينهم ودنياهم،وفيه يتقاضى الناس،ويلتقي قادة الأمة للتشاور في جلائل الأمور.

٣- جامع جَيَّان:

ألمح الإدريسي إلى أن مدينة جيان [٥٨] إشتملت على مسجد جامع،به كثير من العلماء الأجلاء(٥٩)،لكنه لم يحدثنا عن تفاصيل عمارة ذلك الجامع، في حين يصفه الحميري بقوله:" وهو جامع مشرف، يصعد إليه بدرج من جميع نواحيه" ويتكون من خمس بلاطات أو أروقة على أعمدة من الرخام،وله صحن فسيح حوله سقائف.ويرجع الفضل في تأسيسه إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط،على يدي والي جيان [٦٠]

---

(٥٣) ابن جبير،رحلة ابن جبير،ص٣٠٥، السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس،ج١،ص٣٧٤-٣٧٥
Dessus Lamare, La mosque de cordoue (d,après aL Idrisi) ,p.11 Sauvaget, La mosque omeyyade de Mèdine,paris,1947,p.83

(٥٤) الإدريسي،نفسه،ص٥٧٨

(٥٥) نفسه،ص ٥٧٩

(٥٦) الجزيرة الخضراء Algeciras مدينة تقع شرق الاندلس وهي منيعة حصينة وهي على ربوة مشرفة على البحر،وتسمى أيضًا بجزيرة أم حكيم، وهي جارية طارق بن زياد،حملها معه فتخلفها بهذه الجزيرة فنسبت إليها،وبينها وبين قلشانة ١٣٠كم٢ تقريبا،ابن غالب،الفرحة الأنفس،ص٢٩٤،الحميري،الروض المعطار،ص٢٢٣

(٥٧) الأدريسي،نفسه ،ص٥٣٩-٥٤٠

(٥٨) جيان Jaen مدينة مشهورة تقع على سفح جبل عال جدا، بالقرب من نهر بلون،و بينها وبين بياسة عشرون ميلاً ،واشتهرت بالقرى المربية لدود الحرير،ابن غالب ،فرحة الأنفس،الحميري، الروض المعطار، ص١٨٣

(٥٩) الإدريسي ،نفسه،ص٥٦٨

(٦٠) الروض المعطار،ص١٨٣

٤- جامع بجانة[٦١]:

أوضح الإدريسي أن بجانة كانت مدينة مشهورة قبل المرية، ثم انتقل أهلها إلى المرية فعمرت، وخربت بجانة فلم يبق منها إلا آثار بنيانها ومسجد تأسس في عهد الخليفة الناصر (٣٠٠هـ/٣٥٠هـ)وهو جامعها القائم بذاته[٦٢] ويرجع فضل تأسيسه إلى عمر بن أسود،من زعماء البحريين الأندلسيين[٦٣] بساحل بجانة،وهو من العرب الغساسنة(اليمنية).واحتوى بيت الصلاة فيه على سبع بلاطات على أعمدة من الصخر،وبه قبو[٦٤] على قبة بها إحدى عشرة حنية (قوس)،وترتكز تلك الحنايا على أربعة عشر عموداً،ونقشت عليها نقوش عجيبة.واحتوى صحن الجامع على بئر عذبة[٦٥].

وأشار الإدريسي إلى عدة مساجد جامعة أخرى،علاوة على بعض المساجد الصغيرة،كما في شنتمرية[٦٦] وإليسانة[٦٧](مدينة اليهود)من أعمال كور غرناطة،وبيورة[٦٨]،ومجريط[٦٩]، والفهمين[٧٠](قرب طليطلة)،ولقنت[٧١]،وغيرها[٧٢].

---

[٦١] بَجانة Pechina بفتح الباء،وبعدها جيم مفتوحة مشددة،كانت في قديم الدهر أشرف قرى أرش اليمن،(أي أملاك أهل اليمن وأعطياتهم)وبينها وبين المرية حوالي ١٠كم٢، وبينها وبين حصن الحمة ١٠كم٢،وكانت بجانة مقصد رحلات أهل المرية في فصل الربيع،العذري،المصدر السابق،ص٨٧،الحميري،لروض المعطار،ص٧٩-٨٠ ،عبد العزيز سالم ،تاريخ مدينة المرية الإسلامية،مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية،١٩٨٤،ص٢١

[٦٢] الإدريسي،نفسه، ص ٥٦٦

[٦٣] البحريون الأندلسيون: هم مجموعة من البحارة الأندلسيين أغلبهم من أصل إسباني،وبعضهم عربٌ وبربر،توفرت لديهم خبرات بحرية وتوارثوها جيلًا بعد جيل،وعمد هؤلاء البحريون إلى تأسيس قواعد لهم على طول الساحل الشمالي الشرقي ما بين طرطوشة وبلنسية،وتزعمهم أمير سرقسطة،ومضوا يشتغلون لحسابهم الخاص. وكان هؤلاء البحريون يعملون أحيا نا بنقل بعض السلع التى تنتجها الأندلس إلى المغرب والعكس،لكن عملهم الأعظم كان الجهاد البحري، فكانوا يغزون السواحل الكارلونجية بوجه خاص مستغلين في ذلك تفكك قوى الكارلونجيين البحرية في أواخر أيام لويس التقي واضمحلال نفوذهم في شمال إيطاليا،فغزو جزر البليار وصقلية وجنوب إيطاليا وفرنسا وأقريطيش، فكانوا يشكلون قوة إسلامية بحرية وحربية كبيرة.ونزلت جماعات من هؤلاء العرب القضاعيين (اليمنية)—وعلى رأسهم بنو أسود — بساحل بجانة لحراسته،وتنسب اليهم رابطة القبطة أو قابطة بني أسود ، كذلك كان سكان مدينة شلب وقراها من اليمنية، الحميري،الروض المعطار،ص٧٨-٧٩ ، ٣٤٢ ،عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة المرية،ص ٢٧-٣٠،محمد أحمد أبو الفضل: تاريخ مدينة المرية الأندلسية،الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٨١، ص ٣٧ -٤١

[٦٤] القبو : مثل السقف وهو ما يغطى داخل البناء ولكن السقف غالبا ما يكون من الخشب على عكس القبو الذي لا يدخل الخشب في بنائه، البكري، المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن ،وأندري فريي،الدار العربية للكتاب،تونس، ١٩٩٢، ص٣٦

De Goeje, B.G.A (Bibliotheca Geographorum Arabicorum,pars Quarta Brill 1879 ,p.261

[٦٥] الإدريسي، نفسه،ص٥٦٦

[٦٦] شنتمرية Santa Maria وهي من مدن أكشونبة وهي أتقن حصون بنبلونة وتقع على نهر أرغون وبينها وبين شلب حوالي ٦٠كم٢،الإدريسي،نفسه،ص٥٦٦،الحميري،الروض المعطار،ص٣٤٧

[٦٧] اليسانة: Lucena وهي مدينة حصينة، على ضفاف وادى يانه، بينها وبين قرطبة ٨٠كم٢،وكانت تسمى مدينة اليهود لكثرتهم بها.الإدريسي،نفسه، ص ٢٠٥

[٦٨] بيورة مدينة بينها وبين القصرين مرحلتان وبينها وبين بطليوس مرحلتان، والمرحلة هي المسافة التي يقطعها المسافر سيراً على الدابة في يوم واحد،وتقدر بأربعة وعشرون ميلا أي حوالي ٤٥كم٢ فالمسافة بين بيورة والقصرين وبينها وبين بطليوس تقدر بحوالي ٩٠ كيلومترمربع،الإدريسي،نفسه،ص٦١٦،الحميري، الروض المعطار،ص٦١٦،نسيبة الحريري ،المقاييس والمقاديير عند العرب،دار الفضيلة للنشر،القاهرة ،د.ت،،ص٦٥

٥- كنيسة الغراب:

زودنا الإدريسي بإشارات قليلة وموجزة إلى بعض الكنائس وأديرة النصارى الإسبان (المستعربين)،منها قوله عن كنيسة الغراب (بغرب الأندلس) إنها تطل على بحر الظلمات(المحيط الأطلسي)، أشار الإدريسي أن هذه الكنيسة تعود الى العصر الروماني ، ولها أموال يتصدق بها عليها، وكرمات يحملها الروم الواردون عليها[٧٣] ويصفها الإدريسي قائلا إنها في قرطيل خارج في البحر (أي على رأس الجبل)،وعلى رأس الكنيسة عشرة أغربة، وقسيسو الكنيسة يخبرون عن تلك الأغربة بغرائب يُتَّهم المخبر بها. وعن كرم ضيافة الكنيسة قال:"ولا سبيل لأحد من المجتازين بها إلى أن يخرج منها حتى يأكل من ضيافة الكنيسة، ضريبة لازمة وسيرة دائمة،لا ينتقلون عنها ولا يتحولون منها، وهذا الكرم كان عادة موروثة لديهم على مر الأزمان .

وقد اتفق كل من القزويني وشيخ الربوة على وصفها، بأنها كنيسة مبنية من الصخر داخل جبل ولها قبة كبيرة، وعليها غراب دائم الوقوف على قبتها، وفي مقابلها مسجد يزوره الناس، ويقولون إن الدعاء فيه مستجاب،وقد اشُترط على قساوسة تلك الكنيسة ضيافة كل مسلم يقصد ذلك المسجد،فكلما وصل جماعة من المسلمين أدخل الغراب رأسه في روزنة القبة،وصاح صيحات بعدد الواصلين،فيخرج الرهبان بالطعام،وزعم القساوسة أنهم ما زالوا يرون غرابا على تلك الكنيسة[٧٤]

ومن الملاحظ أن الإدريسي أغفل ذكر بعض الكنائس الشهيرة الأخرى في بعض الحواضر الكبرى،مثل قرطبة وطليطلة وسرقسطة وإشبيلية[٧٥]،وكذلك لم يتكلم عن كنيسة لبلة[٧٦] (قرب شلطيش)،التي كانت شرق المدينة،ويقول عنها الحميري إنها كنيسة كبيرة مُعظمة لدى النصارى الإسبان؛ إذ يزعمون أن أحد الحواريين دفن فيها[٧٧].كذلك لم يشرالإدريسي إلى

---

(٦٩) مجريط Madrid تقع بالقرب من طليطلة وهي مدينة صغيرة وقلعة منيعة ومنها إلى قنطرة ياقوره آخر حيز الإسلام، حوالي ستون كم٢،الحميري الروض المعطار،ص٥٢٣

(٧٠) الفهمين: تعرف باسم Alamin أو : Alfahmin وتعرف اليوم باسم Berciana،وهي من قري طليطلة، تقع على الضفة اليسري من نهر البرتش Alberche شمال طليطلة،الإدريسي،نزهة المشتاق،ص ١٨٨؛ Martin Tardio, Juan Jesus, Los Señorios de Mocejon (Toledo), 1997, p. 39.

(٧١) لقنت Alicante وهي مدينة صغيرة عامرة وبها سوق ومسجد عامر ومنبر وبها فاكهة وبقل كثير وتين وأعناب ولها قصبة منيعة جدا في أعلى جبل وبينها وبين دانية على الساحل حوالي ١٤٠كم٢)الإدريسي،نفسه، ص٥٥٣

(٧٢) الإدريسي،نفسه، ص٥٤٠-٥٤٤-٥٥٢-٥٥٣-٥٥٨

(٧٣) نفسه، ص٥٤٤

(٧٤) القزويني(أبو يحيى زكريا بن محمد بن محمود(ت. ٦٨٢ هـ)،آثار البلاد وأخبار العباد، دار صاد،بيروت، ١٩٦٠ م، ص ١٧٩ ؛ شيخ الربوة،(أبو عبدالله، شمس الدين محمد بن أبي طالب ا لأنصاري الصوفي الدمشقي(ت ٧٢٧ هـ)،نخبة الدهر في عجائب البر والبحر،نشر أوتوها رواتس،المانيا، ١٩٢٣،ص ١٤٣

(٧٥) ليوبولدو توريس بالباس؛المدن الاسبانية الاسلامية،ترجمه من الاسبانية اليو دورو دي لابنيا؛راجعه نادية محمد جمال الدين،عبد الله بن ابراهيم العمير،مركزالملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية،٢٠٠٣ م،ص٢٤٥،عبد العزيز سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس(العمارة المدنية)،مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٥،ص١٧٦-١٧٧

(٧٦) لبلة Niebla وهي مدينة قديمة في غرب الأندلس ومن مدنها مدينة جبل العيون وبينها وبين البحر المحيط حوالي ١٢كم٢، وكانت مدينة جامعة لفوائد الكور حتى قيل ان جباية كورة لبلة في أيام الأمير الحكم بن هشام كانت خمسة عشر ألفا وستمائة،وكانت تعرف بالحمراء،ابن غالب،المصدر السابق،ص٢٩١الحميري،الروض المعطار،ص٥٠٧-٥٠٨

(٧٧) الحميري،الروض المعطا،ص ٦٣

كنيسة كانت تقع قرب مدينة دروقة [٧٨](من أعمال قلعة أيوب)[٧٩].كما لم يتحدث عن معابد اليهود[٨٠]،رغم عدم خلو المدن الأندلسية منها خاصة تلك التي يكثر بها اليهود،مثل غرناطة(التي عرفت بغرناطة اليهود)،وإشبيلية وإليسانة(مدينة اليهود)،وطركونة[٨١] بالثغر الأعلى.ثم إن بعض الأمثال الأندلسية تشير إلى وجود تلك المعابد[٨٢]

ثانيًا :بعض مظاهر العمران المدني في الأندلس

أ-القصور والدور :

احتوت الحواضر الكبرى في الأندلس على قصور فخمة، تتجلى فيها روعة العمارة الإسلامية ، ومن أهم تلك القصور ما يأتي:

١- قصر قرطبة:

أشار الإدريسي إلى قصر قرطبة Cordoba الذي كان في الجهة الغربية من المدينة، ويتصل بسورها الجنوبي الغربي، في مواجهة المسجد الجامع[٨٣]،وهو قصر قديم يرجع إلى العصر الروماني، نزل فيه حكام الرومان ثم القوط وأخيراً حكام المسلمين، منذ في عهد الوالي أيوب بن حبيب سنة ٩٧هـ /٧١٥-٧١٦م ، ويضيف المقري أن قصر الإمارة بقرطبة كان يحوي ما يحوي من البدائع الحسان والبساتين،وأجري إليه أمراء بني أمية المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة، في قنوات الرصاص،واشتمل القصر على عدد من المجالس التي تتميز بالأبهة والفخامة.[٨٤]

- قصر الزهراء [٨٥]:

شيده الخليفة عبد الرحمن الناصر داخل مدينة الزهراء،على سفح جبل العروس شمال غرب قرطبة،وقد وصف الإدريسي الزهراء وصفا موجزًا،وأوضح أنها مدينة مستقلة بأسوارها وقصورها، وتتسم بالفخامة وإحكام بنيانها ، وأنها اشتملت على ثلاثة أجزاء،ضم الجزء العلوي منها القصور التي يعجز الواصفون عن وصفها، وفي الوسط بساتين ، أما الجزء السفلي من المدينة فكان يضم المسجد الجامع والدور الفخمة لكبار رجال الدولة،وقد أقام الخليفة بهذا القصر منذ ٣٣٦هـ/٩٤٧- ٩٤٨م قبل أن يستكمل بناء المدينة[٨٦]

---

(٧٨) دَرُوقة Daroca تقع في سفح جبل وعلى مقربة من كنيسة أبرونية،والمسافة بين دروقة وقلعة أيوب حوالي ٣٦ كم،وبينها وبين سرقسطة حوالي ١٠٠كم٢،الحميري،الإدريسي،نفسه،ص٥٥٤،الروض المعطار ،ص٢٣٥

(٧٩) الحميري،نفسه، ص٢٣٥

(٨٠) الإدريسي،نفسه،ص ٥٤٤

(٨١) طركونة Tarragona هي من المدن الساحلية،وكانت الحد الفاصل بين المسلمين والروم،و بينها وبين مدينة لاردة حوالي ١٠٠كم٢،ابن غالب،فرحة الأنفس،ص٢٨٦،الحميري،الروض المعطار،ص٣٩٢

(٨٢) عبد العزيز الأهواني،أمثال العامة في الأندلس،دار المعارف،القاهرة ١٩٦٢م،ص ٣٢٨،ومحمد على دبور، ملامح المجتمع الأندلسي كما تصورها الأمثال الأندلسية.بحوث ندوة التاريخ الإسلامي،كلية دار العلوم،القاهرة ،٢٠٠٧م،ص ١٥٦

(٨٣) الإدريسي، نفسه،ص ٥٧٨،وراجع باسيليوبابون،العمارة في الأندلس، ص٢٦٤

(٨٤) نفح الطيب،ج١، ص١٢-١٣؛عبد العزيز سالم،قرطبة حاضرة الخلافة،ج١،ص١٨٨-١٩٣

(٨٥) الزهراء Medina Azahara هي المدينة التي بناها عبد الرحمن الناصر بالأندلس سنة (٣٢٥هـ/٩٣٦م)،وهي أغرب وأبدع ما بني في الإسلام،وتبعد عن قرطبة بحوالي ١٠كم، الزهري،(أبو عبد الله محمد بن أبي بكر(ت٥٤١)،كتاب الجغرافية،تحقيق محمد حاج صادق،مكتبة الثقافة الدينية ،د.ت،ص٨٧

(٨٦) لمزيد من التفاصيل أنظر،العذري،المصدر السابق،ص١٢٣،الإدريسي،نفسه،ص٥٨٠،ابن غالب،قطعة من فرحة الأنفس،ص ٢٩٩-٣٠٢؛عبد العزيز سالم ، قرطبة،ج١،ص٢٢٩ وما يليها؛باسيليوبابون، العمارة ،ص١١١،٢٦٤-١١٤

٣-قصر ماردة[٨٧] :

وهو من بناء عبد الملك بن كليب بن ثعلبة الجذامي،والي ماردة في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢)،ويشير الإدريسي إلى الآثار الظاهرة والعجيبة في قصر ماردة، ومنها الإرجالات ، وهي عبارة عن أعمدة مبنية تجلب الماء إلى القصر، ومنها قصار ومنها طوال؛بحسب الأماكن التي وجب فيها البناء،وأطولها يكون غلوة سهم[٨٨].وهي على خط مستقيم، وكان الماء يأتي عليها في قني مصنوعة، خربت وفنيت وبقيت تلك الإرجالات يخيل إلى الناظر إليها أنها من حجر واحد لحكمة إتقانها وتجويد صنعتها[٨٩]

ويصف الزهري الإرجالات وصفا دقيقا،فيذكر أنها أعمدة من الرخام الأبيض والأزرق والأحمر،طول كل عمود منها ثلاثون ذراعًا،وعلى رأس كل منها عمود ثان طوله عشرون ذراعًا،وبين كل عمود وعمود عشرون ذراعًا،وهذه الإرجالات كان طولها في الأرض ثمانية فراسخ[٩٠]،والماء يجري عليها حتى يبلغ المكان المعروف بالفرونجة[٩١]

ب- الدور:

لا نقع عند الإدريسي من حديث الدور إلا على إشارات موجزة للغاية،تتعلق ببعض المدن وشهرتها بالدور الفخمة والمباني البديعة، ومن ذلك ما في سياق حديثه عن مدينة طليطلة، من أنها مدينة عظيمة أزلية، من بناء العمالقة، وقلما رؤي مثلها إتقانًا وشماخة بنيان، وهي عالية الذرى، حسنة البقعة، زاهية الرقعة [٩٢] كما وصف مدينة شلب بأنها بديعة المباني.

وألمح الإدريسي إلى أن من المدن ما يكثر فيه الدور والعمارات، ويتصل فيه البنيان،مثل: مالقة، وسرقسطة،وبلنسية[٩٣]،ودانية[٩٤]،وطرطوشة[٩٥]،وبسطة[٩٦]،والفهمين،ومدينة سالم[٩٧] وخص مدينة بجانة بقوله إنها:"لا أتقن منها بناء، ولا أسخن منها ماء"[٩٨] وأفاد بوجود دار

---

[٨٧] ماردة Mérida مدينة بجوف قرطبة منحرفة إلى الغرب قليلا،تبعد عن بطليوس بحوالي ٤٠كم٢،وكان ينزلها الملوك الأوائل فكثرت بها آثارهم.ابن غالب،فرحة الأنفس،ص٢٩٠،الحميري، الروض المعطار،ص١٧٥-١٧٧

[٨٨] غلوة سهم أي مقدار رمية سهم،وتقدر بثلاث مائة ذراع إلى أربع مائة أي أكبر عمود تقدر مساحته بحوالي ٢٠مترمربع، ، إبراهيم مصطفى؛وآخرون ،المعجم الوسيط،،ج١،ص٧٨٦

[٨٩] الإدريسي،نفسه،ص ٥٤٦

[٩٠] الفرسخ يتألف من ٣ أميال ،والميل يساوي ٢كم٢، أي أن الفرسخ يساوي حوالي ٦كم٢، فالترهنتيس،المكاييل والأوزان الإسلامية،ص٩٤

[٩١] الزهري،المصدر السابق،ص٨٦، مؤلف مجهول ،تاريخ الأندلس،ط١،تحقيق د.عبد القادر بوباية دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠٧م،ص ١٠٦-١٠٧

[٩٢] الإدريسي،نفسه،ص٥٥١

[٩٣] بلنسية Valencia مدينة بشرق الأندلس،بينها وبين قرطبة على طريق بجانة ١٦ يوما،وبينها وبين البحر ٦كم٢،ولها أقاليم كثيرة،الزهري،المصدر السابق،ص١٠٢،ابن غالب،المصدر السابق،ص٢٨٥،الحميري ، الروض المعطار،ص٤٧

(٩٤) دانية Denia مدينة على ساحل البحر بشرق الأندلس، ومنها كان يخرج الأسطول إلى الغزو،وفي الجنوب منها جبل عظيم مستدير تظهر من أعلاه جبال يابسه في البحر، الحميري،الروض المعطار،ص٢٣١-٢٣٢

(٩٥) طرطوشة Tortosa تقع في سفح جبل ،ولها سور حصين،وبينها وبين بلنسية حوالي ٢٠٠كم٢،ومنها إلى طركونة ١٠٠كم٢،الزهري،المصدر السابق،ص١٠٣،الحميري،الروض المعطار،ص٣٩١

[٩٦] بسطة Baza مدينة من كور جيان وتقع بالقرب من وادي آش،وبينها وبين جيانثلاث مراحل،ابن غالب، المصدر السابق،ص٢٨٤، الحميري،الروض المعطار،ص١١٣.

[٩٧] مدينة سالم Medinaceli تقع على الطريق بين مجريط (مدريد)وسرقسطة، تبعد عن مجريط حوالي ١٣٥ كم، تقع إلى الشمال منها،كانت من أهم ثغور الأندلس،ولها قلعة منيعة، وكانت مركزاعسكريا منيعا.ابن غالب،فرحة الأنفس،ص٢٨٨الإدريسي، نفسه،ص٥٥٢- ٥٥٣-٥٥٤-٥٥٥-٥٥٦-٥٥٧-٥٦٨

[٩٨] الإدريسي،نفسه،ص٥٦٦

داخل قصرماردة يقال لها دار الطبيخ؛وذلك أنها في ظهر مجلس القص،وكان الماء يأتي دار الطبيخ في ساقية،فتوضع صحاف الذهب والفضة بأنواع الطعام في تلك الساقية على الماء حتى تخرج بين يدي الملكة،فترفع على الموائد،ثم إذا فرغ من أكل ما فيها وضعت في الساقية، فتستدير إلى أن تصل إلى يد الطباخ بدار الطبخ،فيرفعها بعد غسلها، ثم يمر بقية ذلك الماء في سروب القصر[٩٩]

وجدير بالذكر أن الإدريسي- كغيره من الجغرافيين والمؤرخين الأندلسيين-لا يحدثنا عن مكونات الدار الأندلسية،غير أنه من الحفائر الأثرية أمكن معرفة أنها كانت تتألف من قسمين: الواجهة الخارجية،وداخل الدار.والواجهة تخلو من الزخرفة،على عكس الجزء الداخلي،الذي يمتاز بكثرة زخارفه،ويتوسطه صحن أو فناء تطل عليه الغرف[١٠٠]

ج- الأسواق والفنادق:

تعد الأسواق جزءًا مهمًا من المنشآت المدنية،حيث أنها ضرورة ملحة لسد حاجات الناس من متطلبات الحياة اليومية و يتضح مما ذكره الإدريسي أن هناك أنواعًا من الأسواق،بعضها للسلع الغذائية والعطور[١٠١]، وهو يصف أسواق ذلك النوع بأنها حسنة الترتيب،جميلة الهيئة، عامرة،ومتاجرها دائمة لا تنقطع،وخيراتها كثيرة،وحولها عمارات متصلة آهلة بالسكان.ومن أمثلة ذلك أسواق بإشبيلية ومالقة وبسطة،وبلنسية ولبلة،وطلبيرة[١٠٢] ومجريط وشلب،وغيرها[١٠٣]

أما النوع الثاني من الأسواق فهو الأسواق الصناعية التي بها المصنوعات والمعادن والمواد الخام اللازمة لها. ومما أورده الإدريسي من ذلك أن مدينة لورقة[١٠٤] بها أسواق، ولها ربض في أسفلها، وأعلى الربض سور، وفي الربض السوق، وبها معادن تربة صفراء ومعادن مغرة تُحمل إلى كثير من الأمصار[١٠٥]

وطرطوشة أيضًا بها أسواق وضياع،وتمتاز بكثرة العمال، وهي موضع تشييد المراكب الضخمة المصنعة من خشب جبالها ،وهو خشب الصنوبر الذي لا له نظير في الطول والغلظ[١٠٦] وفي شلطيش صناعة الحديد الذي يعجز عنه صنعة أحد البلاد،وفيها صنعة المراسي والمراكب[١٠٧]

والفنادق أشار الإدريسي بإيجاز شديد إلى وجودها في كثير من المدن الأندلسية،مثل جزيرة طريف[١٠٨]،وأرباض مدينة مالقة، وحصن قيشاطة[١٠٩]،وقرية عذرة[١١٠]،وقال إن فنادق مدينة المرية عددها تسعمائة وسبعون فندقا[١١١]

---

[٩٩] نفسه،ص ٥٤٦

[١٠٠] توريس بالباس،المدن الاسبانية الإسلامية،ص ٥٧٧ وما يليها،عبد العزيز سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام(العمارة المدنية) ،ص ١٨٤-١٨٥

[١٠١] الإدريسي،نفسه،ص٥٤١-٥٦٠

[١٠٢] طلبيرة Talavera تقع غرب طليطلة،على نهر التاجه في جنوبي غرب مجريط،ولها قلعة حصينة بينها وبين طليطلة سبعون ميلاأي حوالي ١٤٠كم٢،وهي باب من الأبواب التي يدخل منها الى أرض المشركين. الحميري، المصدر السابق،ص ١٢٧ -١٢٨؛محدد الفاسي، الأعلام الجغرافية الأندلسية،مجلة البينة،السنة الأولي،العدد الثالث،المغرب ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م،ص ٢٨

[١٠٣] الإدريسي،نفسه،ص ٥٥١-٥٥٢-٥٥٣-٥٥٧-٥٦٥

[١٠٤] لُورَقة Lorca معناها باللطيني الدرع الحصين،وهي مدينة من بلاد تدمير، وتقع على ظهر جبل،وبينها وبين مرسية حوالى ٨٠ كم٢،الإدريسي،نفسه،ص٥٦١،الحميري،الروض المعطار،ص٥١٢

[١٠٥] الإدريسي،نفسه،ص ٥٦٠-٥٦٢

[١٠٦] نفسه، ص٥٥٥

[١٠٧] نفسه،ص ٥٤٢

[١٠٨] جزيرة طريف Tarifa هي مدينة صغيرة في بحر الزقاق (مضيق جبل طارق)وتنسب إلى طريف بن مالك الذي فتحها،ومن جزيرة طريف إلى الجزيرة الخضراء حوالي ٣٦ كم٢،الحميري،الروض المعطار،ص ٣٩٢

ومن المعروف أن الفنادق كانت تكثر في وسط المدينة قرب المسجد الجامع، مثل فندق طليطلة، وبعد سقوطها في أيدي النصارى القشتاليين عُرف أحد شوارعها بشارع الفندق Calle de Alfondiga،وكذلك الحال في غرناطة[١١٢] خلال عصر بني الأحمر،ويسمى فندقها الذي كان في وسطها بفندق الجنوية (تجار جنوة)،وغيرها كثير

ومن الملاحظ أن الإدريسي أغفل ذكر أسواق وفنادق في بعض الحواضر الكبرى، مثل طليطلة وغرناطة وسرقسطة،على الرغم من أن المصادر الجغرافية الأندلسية أشارت إلى شهرة تلك الحواضر بأسواقها وفنادقها،ونشاط الحركة التجارية فيها،كذلك لم يذكر لنا أية معلومات عن القيساريات[١١٣] التي حظيت بشهرة كبيرة، مثل قيساريات قرطبة والمرية وبلنسية وغرناطة[١١٤]

د- الحمامات:

يتضح مما ذكره الإدريسي أن الحمامات العامة كانت تنتشر في المدن الأندلسية جميعها؛ لارتباطها بالطهارة والوضوء قبل الصلاة، ولعب الماء فيها دورًا مهما في زينة العمارة العربية الإسلامية في الأندلس، كما أن الحمامات ذاتها احتوت على نماذج زخرفية متنوعة، تبهج العين وتريح البال،وفق نمط إسلامي أندلسي فريد[١١٥] .وكانت الحمامات تكثر قرب المساجد[١١٦]،ومما ذكره الإدريسي منها،حمامات المرية ومالقة وحصن قيشاطة،وجزيرة طريف،وقرية عذرة،ومدينة إشبيلية التي كانت بها ثمانية آلاف قرية عامرة آهلة بالحمامات والديار الحسنة[١١٧]

وكان الحمام يتألف عادة من مدخل يؤدي إلى ثلاث قاعات أو أربع رئيسية مقباة تضاف إليها ملحقات الحمام من الموقد والمرحاض، وكانت هذه القاعات تتصل فيما بينها عن طريق فتحات أو أبواب،وكانت تتخذ جميعا شكلا مستطيلا أو مربعا[١١٨] ويؤدي مدخل الحمام إلى اسطوان وردهة صغيرة في شكل مرفق ، يليه حجرة مستطيلة تعلوهاقبوة نصف اسطوانية

---

(١٠٩) قيشاطة حصن منيع كالمدينة ،بينه وبين شوذر ٢٤كم٢ ،وعليه جبل يقطع به من الخشب الذي تخرط منه القصاع والأطباق، وهذا الجبل يتصل بمدينة بسطة، والمسافة التي بين حصن قيشاطة ومدينة جيان مرحلتان، أي حوالي ٩٠كم٢ ، الحميري،الروض المعطار، ص٤٨٨

(١١٠) عذرة قرية صغيرة لا سور لها،وبها الحمامات والفنادق،ومنها إلى قرية بليسانة ٤٠كم٢،الإدريسي،نفسه،ص ٥٦٣-٥٦٤-٥٦٩-٥٧٠

(١١١) نفسه ، ص٥٦٢-٥٦٣

(١١٢) توريس بالباس، المرجع السابق، ص ٢٦٨، عبد العزيز سالم ، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس (العمارة المدنية) ص ٢١٨-٢١٩

(١١٣) القيسارية هي بناء مؤلف من شبكة من الطرقات الضيقة المسقوفة،أو ممرات تدور حول بهوفسيح تنفتح عليها الحوانيت، وتعتبر القيسارية المركز الرئيسي للتجارة في المدينة، وتجرى كل أمور التجارة فيها،أحمد محمد الطوخي ،مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر ،مؤسسة شباب الجامعة،الأسكندرية،د.ت،ص٢٧٨، كمال السيد المرجع السابق ،ص٣٠٤

(١١٤) العذري،المصدر السابق، ص ١٨-٨٦، ابن صاحب الصلاة ، المدن بالإمامة،تحقيق عبد الهادي التازي،بيروت، ١٩٦٤، ص٤٨٥-٤٨٦

(١١٥) George Michell. 1978 thame Jones, Dalu: Architecture of the world, Edited by and Hudson, Ltd, London, PERR IN Ted 1984, P165

(١١٦) توريس بالباس،المرجع السابق،ص ٢٦٧،عبد العزيز سالم،تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس (العمارة المدنية)،ص ٤٣

(١١٧) الإدريسي،نفسه،ص ٥٣٩-٥٤١-٥٦٢-٥٦٣-٥٦٩-٥٧٠

(١١٨) عبد العزيز سالم ،العمارة المدنية في الأندلس ، دار معارف الشعب ،القاهرة،العدد الرابع والستون ، لسنة ١٩٥٩،ص١٤٠، محمد عبد الوهاب خلاف ،قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي-الخامس الهجري،الدار التونسية للنشر،تونس،١٩٨٤،ص٣٠

بنهايتها قبوان يعرفان بالخلوتين ويفصل هاتين الخلوتين عن بقية القاعة عقدان يستندان فيما بينهما على عمود مركزي وتعرف هذه القاعة باسم البيت البارد، وكان المستحمون يخلعون فيها ثيابهم عند دخول الحمام ويلبسونها عند خروجهم منه،وفي أركان الخلوتين مقاعد يستريح عليها المستحمون[١١٩]

ومن الملاحظ أن الإدريسي أغفل ذكر حمامات كانت في حواضر كبرى،مثل: سرقسطة وطليطلة وبلنسية،مع أن أطلال بعضها باقية حتى يومنا هذا[١٢٠]

و- القناطر والجسور:

لقد تميزت بلاد الأندلس عن غيرها من البلدان الإسلامية الإخرى؛ بكثرة أنهارها التي تخترق مدنها وقراها،ونظرًا لوقوع أغلب مدن وقرى الأندلس على الأنهار و الوديان، فمن الطبيعي أن يكون لها قناطر وجسور لربط المناطق التي تفصلها الأنهار بعضها ببعض .

ويذكر الإدريسي أن الأندلس تشمل أقاليم عدة، في كل إقليم منها مدن [١٢١]،ويصنف مدن الأندلس إلى ثلاثة أقسام:صغيرة متحضرة، ومتوسطة المقدار،ومدن عملاقة أزلية البناء. ومن هذا النوع الأخير قرطبة، التي لها قنطرة [١٢٢] علت القناطر فخرا في بنائها وإتقانها، وعددٍ قسيها سبع عشرة قوسا،بين القوس والقوس خمسون شبرا، وسعة القوس مثل ذلك خمسون شبرا، وسعة ظهرها المعبور عليه ثلاثون شبرا،ولها ستائر من كل جهة تستر القامة.

وأشار الإدريسي إلى أن ارتفاع قنطرة قرطبة من موضع المشي إلى وجه الماء -في أيام جفوف الماء وقلته- ثلاثون ذراعا، وإذا كان السيل بلغ الماء منها إلى نحو حلوقها . وتحت القنطرة يعترض الوادي رصيف سد مصنوع من الأحجار القبطية والعمد الخاشنة من الرخام [١٢٣].أما عن قنطرة طليطلة [١٢٤]،فيذكر الإدريسي أنها من عجيب البنيان،وهي قوس واحدة، والنهر يدخل تحت تلك القوس كله بعنف وشدة جري. ومع آخر القنطرة ناعورة [١٢٥](الساقية) ارتفاعها في الجو تسعون ذراعًا، وهي تُصعد الماء الى أعلى القنطرة، والماء يجري على ظهرها فيدخل المدينة[١٢٦]

---

[١١٩] توريس بالباس،المرجع السابق،ص١١٠-١١١، محمد عبد الوهاب خلاف ،المرجع السابق،ص٣٠

[١٢٠] عبد العزيز سالم، تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس (العمارة المدنية)، ص ٢١٤-٢١٥

[١٢١] الإدريسي، نفسه،ص٥٣٦

[١٢٢] كانت قنطرة قرطبة تصل بين مدينة قرطبة نفسها، وربضها (ضاحيتها) الواقع جنوبي المدينة،على الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير،وهو الربض المعروف بشقندة ، وحدث في السنوات الأولى من القرن الثامن الميلادي ، أن تهدمت قنطرة قرطبة ، فأعاد السمح بن مالك بناءها من أحجار سور قرطبة. ابن عذاري،البيان المغرب في أخبار المغرب،دار صادر،بيروت، ١٩٥٠،ج٢،ص٨٣. السيد عبد العزيز سالم ،حضارة الإسلام في الأندلس ، ص٣٥

[١٢٣] الإدريسي ، نفسه،ص٥٣٦

[١٢٤] قنطرة طليطلة هدمت هذه القنطرة في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط حين ثار عليه أهلها ، ثم جددها خلف بن محمد العامري (٣٦٧هـ /٩٩٧)، قائد المنصور بن أبي عامر. السيد عبد العزيز سالم ، حضارة الإسلام في الأندلس ، ص ٥٤

[١٢٥] الناعورة: جمعها نواعير، وتسمى كذلك نورية، آلة لرفع الماء قوامها دولاب كبير من خشب يقام في مجرى ماء ويصدر دورانه صوتا مميزا، يثبت محوره على جدار عال من حجر وتوزع على دائرته الخارجية دلاء تغرف المياه أثناء دورانه، لتصب عندما ترتفع في قناة تجري في أعلى الجدران، لتوزع منها على البساتين والمنازل والمساجد والحمامات وأحياء المدينة، وتسمى النواعير التي تديرها الحيوانات باسم لسانية، أنظر: الفارابي ، معجم ديوان الأدب، ج١، ص٣٧٢ ،عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة الإسلامية في الأندلس، دار النهضة ، ١٩٧٢،ج٢، ص٢٠٣ ، عبد الرحيم غالب موسوعة العمارة والفنون الاسلامية، ط١، جروس برس، بيروت ١٩٨٨، ص ٤٢٨، منير البعلبكي، موسوعة المورد،ط٢، دار العلم للملايين، ج٧،ص ١٣٩

[١٢٦] كما ألمح الإدريسي إلى أن أهل الإسلام وجدوا في طليطلة عند افتتاح الأندلس ذخائر تفوق الوصف، منها مائة وسبعون تاجًا من الذهب مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة، وألف سيف مجوهر ملكي، ووجد بها من الدر والياقوت أكيال وأوساق، ومن أنواع آنية الذهب والفضة ما لا يحيط به تحصيل،ومائدة سليمان بن داود، وكانت فيما يذكر من زمردة واحدة ،الإدريسي، نفسه، ص٥٥١

كما أشار الإدريسي إلى قنطرة ماردة،وهي كبيرة ذات قسي عالية الذرى، كثيرة العدد، عريضة المجاز. وقد بنيت على ظهر القسي أقباء تتصل من داخل المدينة- أي آخر القنطرة- ولا يُرى الماشي بها. وفي داخل هذا الداموس [١٢٧] قناة ماء تصل المدينة، ومشيُ الدواب والناس على أعلى تلك الدواميس، وهي متقنة البناء وثيقة التأليف حسنة الصنعة[١٢٨] ويضيف الإدريسي فيذكر قنطرة مدينة إستجة[١٢٩] عجيبة البناء التي من الصخر المنجور[١٣٠]

وفي وسط ماردة أحناء قوس يدخل تحته الفارس بيده علم قائم،عدد أحجاره أحد عشر حجرًا فقط ،في كل عضادة(Jambas)أي دعامة[١٣١] منها ثلاثة أحجار،وفي القوس أربعة أحجار حنيات،وواحد قفل، فكانت الجملة أحد عشر حجرًا [١٣٢]

ويحدثنا الإدريسي عن حصن قنطرة السيف، الذي بينه وبين مدينة ماردة يومان، وهي من عجائب الأرض، وثمة حصن منيع على نفس القنطرة، وأهلها متحصنون فيه،لا يقدر لهم أحد على شيء.والقنطرة لا يأخذها أحد بالقتال إلا من بابها فقط [١٣٣]

ولم يصف الإدريسي هذه القنطرة وصفا دقيقا، بينما يقول عنها الزهري:" إنها من بناء الخزر الأول، وإن ارتفاع قوسها سبعون ذراعًا ،وعرضه سبعة وثلاثون ذراعًا ،وعلى متن هذا القوس برج عظيم ارتفاعه على ظهر القنطرة أربعون ذراعًا،وقد بني البرج والقنطرة بأحجار عظيمة، طول الحجرة منها ثمانية أذرع وعشرة أذرع [١٣٤]، وفي رأس البرج في أحد الأحجار ثقب فيه سيف من اللطون[١٣٥]

وعند الحديث عن مدينة المنكب[١٣٦] يذكرالإدريسي أن بها بناءً مربعًا قائمًا كالصنم ،أسفله واسع وأعلاه ضيق، وبه حفيران، وبإزائه حوض كبير يأتي إليه الماء من نحو ميل[١٣٧]،على ظهر قناطر كثيرة معقودة من الحجر الصلد، فيصب ماؤها في ذلك الحوض، ويذكر أهل المعرفة من أهل المنكب أن ذلك الماء كان يصعد إلى أعلى المنار وينزل من الناحية الأخرى فيجري هناك إلى رحى صغيرة [١٣٨] وكذلك أشار الإدريسي إلى مدينة مرسية[١٣٩] التي تقع على النهر الأبيض حيث

---

(١٢٧) الداموس: والجمع دواميس،وهو مكمن الصائد،المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية، القاهرة،١٩٦٠، ج١،ص ٦١٤.

(١٢٨) الإدريسي،نفسه،ص٥٤٥

(١٢٩) استجة Ecija تقع على وادي شنيل إلى الجنوب الغربي من قرطبة على بُعد خمسين كيلو مترا منها،وهي مدينة قديمة لا يزال أهلها في جاهلية.ابن غالب،المصدر السابق،ص٢٩٥؛الحميري، الروض،ص٥٣؛ابراهيم عبد المنعم سلامة،التاريخ السياسي لمدينة استجة الأندلسية،مجلة المؤرخ العربي،٢٠٠٠م،ص٣٩٧-٣٩٨

(١٣٠) الإدريسي ، نفسه ، ص٥٧٢

(١٣١) Dessus Lamare,Le musbaf de La mosque de cordoue,p,158(Journal Asiatique,1933) –Dozy,supptement.

(١٣٢) الإدريسي،نفسه ، ص ٥٤٦

(١٣٣) نفسه،ص ٥٤٦ -٥٤٧

(١٣٤) الزهري،المصدر السابق، ص٨٥

(١٣٥) اللاطون: نوع من أنواع النحاس الأصفر الجيد، المقري،نفح الطيب، ج١، ص ٤٦٤

(١٣٦) المنكب Almuñécar مدينة تقع على بعد ٨٠كم٢ من مدينة غرناطة ، ولها مرسى يسمى باسمها ، الحميري، الإدريسي،نفسه،ص٥٦٤؛الروض المعطار،ص٥٤٨-٥٤٩

(١٣٧) الميل يساوي أربعمائة ذراع، أي حوالي ٢كم٤؛فالترهنتيس،المكاييل والأوزان الإسلامية،ص٩٥

(١٣٨) الإدريسي،نفسه،ص٥٦٤

(١٣٩) مرسية Murciaمدينة قديمة أزلية حسنة المنظر،أحدقت بها الأشجار والبساتين من كل ناحية،وبها جامع عظيم متسع عجيب البناء،بناه أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين.العذري،المصدر السابق،ص٦؛الزهري،المصدر السابق،ص١٠٠-١٠١؛ابن غالب،المصدر السابق،ص٢٨٥

يجاز إليها على قنطرة مصنوعة من المراكب[١٤٠]، ويضيف الإدريسي أن لمدينة طليطلة التي عرفت بالمدينة البيضاء[١٤١] جسر عظيم يُجاز عليه إلى المدينة،ولها مبانٍ رفيعة[١٤٢]

هـ - بيوت الأرحاء الطاحنة:

كانت الأرحاء منشآت عمرانية ومرافق حيوية، كغيرها من المرافق، كالمسجد والحمام والسوق وغيرها، وكان طحن الحبوب من المهن الرائجة في الأندلس،وساعد على ذلك وفرة المادة الأولية اللازمة؛إذ انتشرت زراعة الحبوب في مختلف المناطق الأندلسية ، بالإضافة إلى أهمية هذه المهنة وضرورتها في الحياة اليومية. وكانت الحبوب تطحن بواسطة الأرحاء المائية التي على أنهار مدن الأندلس،وهي تقنية ابتكرها الإنسان؛لاستغلال الطاقة المائية؛إذ تدور بفعل قوة صبيب مياه النهر، لتطحن الحبوب وسائر ما يتخذونه لمعايشهم. وكانت كل طاحونة من تلك الطواحين تتكون من قاعة كبيرة ذات أعمدة، تضم أحيانًا أربع أرحاء أو خمس أو ست[١٤٣]. وقد أشار الإدريسي إلى أن مدينة قرطبة بها ثلاثة بيوت أرحاء[١٤٤] في كل بيت منها أربع مطاحن، كما قال إن مدينة طلبيرة على ضفة نهر تاجه، ولها على هذا النهر أرحاء كثيرة[١٤٥]

وابتكر أهل الأندلس أيضًا طريقة لطحن الحبوب بواسطة الأرحاء المتنقلة؛وذلك بوضع تلك الأرحاء في قوارب،بحيث تكون الرحي داخل القارب،والدولاب يدور خارجه في الماء. وبهذا يسهل الانتقال بها من موضع إلى آخر؛ لتقديم الخدمة للناس وهم في مواقعهم،ومن أمثلة ذلك أرحاء مدينة مرسية الطاحنة التي في مراكبها وطواحن سرقسطة المتنقلة من مكان إلى آخر[١٤٦] .ويصف الإدريسي الطريق النهري من قرطبة إلى إشبيلية،فيقول إن المراكب تبدؤه في النهر من أرحاء(الزرادة)حتى تصل إلى وادي الرمان أو إلى أرحاء (ناصح) إلى قرطبة[١٤٧]

ويضيف الإدريسي أن في مدينة قلمرية التي على نهر منديق-الذي يتصل جريانه الى البحر- أرحاء عدة[١٤٨]،ويحدثنا عن أرحاء الوادي المنسوب إلى مدينة بجانة[١٤٩]،وأرحاء مدينة جيان التي على نهر بلون، وهو نهر كبير، وعليه أرحاء كثيرة جداً[١٥٠]،وكذلك مدينة باغة حيث تكثر المياه التي عليها أرحاء كثيرة داخل المدينة[١٥١].

ثالثًا:بعض مظاهر العمران الحربي في الأندلس

أ- الأسوار والأبواب والأبراج:

تحدث الإدريسي بشيء من التفصيل عن كثير من مظاهر العمران الحربي في المدن الأندلسية، من أسوار وأبراج وقصاب وقلاع.ومن أمثلة ذلك وصفه لمدينة ماردة بأن لها أسوار حجارة منجورة من أحسن صنعة وأوثق بناء[١٥٢]

---

[١٤٠] الإدريسي،نفسه،ص٥٥٧-٥٥٨

[١٤١] وسميت بذلك لكثرة جصها وجيرها،ومن خواصها أنها لا تدخلها حية ألبتة،الإدريسي،نفسه،ص٥٥٤

[١٤٢] نفسه، ص٥٥٤

[١٤٣] الفارابي،معجم ديوان الأدب، ج ١،ص ٣٧٣؛الحسن الوزان،وصف أفريقيا،ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣، ص.٢٣٣

[١٤٤] الإدريسي، نزهة المشتاق،ص٥٧٩

[١٤٥] نفسه ،ص٥٥١

[١٤٦] نفسه،ص٥٥٩

[١٤٧] نفسه،ص٥٧٤

[١٤٨] نفسه،ص٥٤٧

[١٤٩] نفسه،ص٥٦٢

[١٥٠] الإدريسي،نفسه،ص٥٦٨

[١٥١] نفسه،ص٥٧١

[١٥٢] الإدريسي،نفسه،ص٥٤٥-٥٤٦

ويصف سور الجزيرة الخضراء بأنه من الحجارة المفرغة بالجير،وسائر السور من التراب[١٥٣] واوضح ان أسوار لورقة والمرية تحيط بالمدينة والربض[١٥٤] كما أن ربض المرية- الواقع على جبل يسمى جبل لاهم- محاط أيضًا بسور. ويضيف أن المرية احتوت أيضا على ربض آخر محاط بسور على الجانب الغربي،يسمى ربض الحوض،وهو ربض كبير عامر[١٥٥]

ويصف مدينة طركونة على البحر- بأنها مدينة اليهود- وسورها من الرخام،وهي حصينة منيعة،يطوف بها من كل ناحية خندق عميق[١٥٦].وعندما وصف سور قرمونة[١٥٧] ذكر أنه يضاهي سور إشبيلية[١٥٨]،وأن مدينة وادي آش[١٥٩] فكانت ذات أسوار محدقة بها[١٦٠] ولدانية سور حصين من ناحية الشرق ،يطل على البح،مشيد "بهندسة وحكمة"[١٦١]،ويقول إنه عند المد يصعد ماء البحر إلى داخل سور شنت مارية[١٦٢]

ويصف أسوار مدن أخرى قائلاً إنها تمتاز بالحصانة والمنعة،منها أسوارمدن يبورة، وقلمرية،ويلبش[١٦٣]،ووادي الحجارة[١٦٤]،ولبلة،وقورية[١٦٥]،وترجالة[١٦٦]،وسرقسطة،ووشقة[١٦٧]، وبسطة،وغيرها[١٦٨]

ويحدثنا الإدريسي بايجاز شديد عن أبواب بعض المدن، فيذكر أبواب سور الجزيرة الخضراء وقلمرية، ويحددهما بثلاثة أبواب[١٦٩]،وألمح إلى أن لمدينة المرية عدة أبواب[١٧٠]،وأن قرطبة لها بابان،هما: باب القنطرة وباب اليهود بشمالها[١٧١]

---

(١٥٣) نفسه،ص ٥٣٩

(١٥٤) نفسه،ص٥٦١-٥٦٢

(١٥٥) نفسه،ص ٥٦٢-٥٦٣

(١٥٦) نفسه،ص٥٥٥-٥٧١

(١٥٧) قرمونة Carmona تقع في سفح جبل،وهي بين قرطبة وإشبيلية، على الضفة اليمني من نهر الوادى الكبير،فى الشرق من إشبيلية، بينهما عشرون ميلا،أي حوالى أربعون كيلو متر مربع، وبينها وبين إستجه خمسة واربعون ميلا، أي حوالي ٩٠ كم٢،الإدريسي،نفسه،ص٥٧٢،الحميرى،المصدر السابق، ص ١٥٨-١٥٩

(١٥٨) الإدريسي،نفسه، ص٥٧٢

(١٥٩) وادي آش Guadix مدينة بالأندلس قريبة من غرناطةبها الكثير من السلع من أصناف الثماروالقطن ، الحميري ،الروض المعطار،ص١٩٢

(١٦٠) نفسه، ص٥٦٧

(١٦١) الإدريسي،نفسه، ص٥٥٧

(١٦٢) نفسه،ص٥٤٣

(١٦٣) يلبش مدينة تقع بالقرب من مدينة شنترين وهي على سفح جبل ولها سور منيع ورقعة فرجة وبها عمارات وأسواق وديار كثيرة ، ولنسائها جمال فائق ومنها الى بطليوس ٢٤كم٢، الإدريسي ، نفسه،ص٥٥٠

(١٦٤) وادي الحجارة Guadalajara وهي مدينة تعرف بمدينة الفرج بالأندلس،وهي بين الجوف والشرق من قرطبة،وبينها وبين طليطلة ١٣٠كم٢الإدريسي،نفسه،ص٥٥٣،الحميري،الروض المعطار، ص٦٠٦

(١٦٥) قورية: Coria وهي قلعة منيعة تقع على مقربة من ضفة التاجه اليمني في شمال غرب طليطلة، فى غرب الأندلس، قريبة من ماردة، وبينها وبين قنطرة السيف مرحلتان أي حوالي ٩٠كم٢، ولها سور منيع. الإدريسي،نفسه،ص٥٥٧،الحميري، الروض المعطار،ص ١٦٤.

(١٦٦) ترجالة Trujillo مدينة كالحصن المنيع،وفي سنة ٦٣٠هـ نزل الروم عليها فحاصروها فخرج إليهم محمد بن يوسف بن هود طامعا في انتهاز فرصة فيهم ولكنه لم يتمكن،الإدريسي،نفسه،ص٥٣٩،الحميري،الروض المعطار، ص١٣٣

(١٦٧) وشقة Huesca مدينة حصينة بالأندلس لها سوران من حجر،بينها وبين سرقسطة ١٠٠كم٢،العذري،المصدر السابق،ص٥٥،الزهري،المصدر السابق،ص٨٢،الحميري،الروض المعطار،ص٦١٢

(١٦٨) الإدريسي،نفسه،ص ٥٤١-٥٤٤-٥٤٧-٥٥٠-٥٥١-٥٥٣-٥٥٤-٥٥٥-٥٦٨

(١٦٩) الإدريسي،نفسه،ص ٥٣٩-٥٤٧

(١٧٠) نفسه، ص٥٦٣

وأغفل الإدريسي الإشارة إلى كثير من أبواب المدن،كأبواب مدينة إستجة :باب القنطرة في الشرق، وباب إشبونة في الجنوب، وباب رزق في الغرب، وباب السوقية في الجوف أو الشمال، وغير ذلك من الأبواب[١٧٢]

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الإدريسي أغفل ذكر باب غرناطة الذي في الجهة الشمالية الغربية من السور، وورد ذكر له عند ابن الخطيب، وكذلك باب البحر الذي في السور الجنوبي قرب دار الصناعة بمدينة مالقة، ويؤدي إلى ساحل البحر[١٧٣]

أما الأبراج فكانت تلحق بالسور لتكون تحصينات دفاعية أمامية لأغراض عدة، منها تقوية الأسوار وتدعيمها، علاوة على أن شرفات البرج -أو فتحاته- تساعد على توجيه ضربات موجعة للعدو إذا ما حاول الاقتراب من الأسوار.وكانت الأبراج في الأندلس مربعة غالبًا أو مستطيلة،وتُبنى بعد بناء الأسوار[١٧٤]

وأفادنا الإدريسي بوصفه برج ماردة الذي في الجهة الجنوبية من سور المدينة،وبرج(ويسمى ببرج القصر)الذي به مرآة كانت الملكة ماردة تنظر إلى وجهها فيها، وأن محيط دوره أو مساحته عشرون شبرًا [١٧٥] وصنعت ماردة تلك المرآة لتحاكي مرآة ذي القرنين التي صنعها في منار الإسكندرية .وعند حديثه عن طركونة كانت بها أبنية حصينة وأبراج منيعة[١٧٦] .

وأغفل الإدريسي كثيرًا من الأبراج،على الرغم مما أشارت إليه منها المصادر الجغرافية الأندلسية. يذكر الحميري مثلا أن ماردة لا تخلو قرية أو ضيعة بها من برج يمتنع فيه السكان من خطر العدو[١٧٧] .وبسور قرطبة الغربي برج يعرف بالبرج الأجمل، وفي ركن منه أيضًا من ناحية الجوف بنيان مرتفع على السور يسمى سمرملة،به برج للمقاتلين،وبقصبة قرمونة عدة أبراج[١٧٨]

ب - الحصون والقلاع والقصاب :

من أقدم تعريفات كلمة حِصْن في معاجمنا العربية، ما ذكره الفراهيدي (ت١٧٠هـ/٧٨٦م)،حين قال في معجمه إن الحصن كل موضع حصين لا يوصل إلى ما في جوفه [١٧٩] ويتداخل مع مفهوم الحصن معنى مفردة لغوية أخرى هي القلعة، وقدعرَّف ابن دريد الأزدي (ت٣٢١هـ/٩٣٣م)[١٨٠] القلعة فقال إنها:" حصن في أعلى الجبل، والجمع قلاع ".وفي موسوعة العمارة الإسلامية قيل عن القلعة إنها:" برج حصين يقام على مكان مشرف(تلة أو جبل)[١٨١] .ومن خلال هذه التعريفات لكلمتي الحصن والقلعة يتضح أن الغرض منهما واحد،وهو حماية الموقع من هجوم الأعداء.

---

(١٧١) نفسه، ص٥٧٥

(١٧٢) الحميري،الروض المعطار، ص٥٣-٦١-٩٧

(١٧٣) الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي،القاهرة،١٩٧٤،المجلد ٢،ص ٥٦٤ ،كمال أبو مصطفى، مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف، دراسة في مظاهر العمران والحياة الاجتماعية،مؤسسة شباب الجامعة،الإسكندرية، ١٩٩٠ ، ص٢٣ Robles,Malaga musulmama,p.299

(١٧٤) مالدونادو،العمارة في الأندلس (عمارة المدن والحصون) ترجمة د. علي منوفي،المجلس الأعلى للثقافة ،القاهرة ، ٢٠٠٥،ص ٤٦٢-٤٦٤

(١٧٥) الإدريسي،نفسه،ص٥٤٦

(١٧٦) نفسه،ص٥٥٥

(١٧٧) الحميري ،الروض المعطار، ص٥٠٧

(١٧٨) نفسه، ص ٤٦١

(١٧٩) كتاب العين،تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي،دار ومكتبة الهلال،بيروت، د.ت، ج٣، ص١١٨

(١٨٠) جمهرة اللغة ، تحقيق رمزي منير بعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٧م، ج٢، ص٩٤٠

(١٨١) غالي عبد الرحيم، موسوعة العمارة الإسلامية ،جروس برس ، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٣١٩

ومن المعروف أن الحصون من العمائر الحربية التي استخدمها الانسان منذ القدم بغرض الدفاع، والتصدي لهجمات الأعداء.وعند القراءة التاريخية لكتاب الإدريسي وحديثه فيه عن بلاد الأندلس—تاريخيا وجغرافيًّا—نجد إشارات كثيرة إلى الحصون الأندلسية،مما يدل على أهميتها في النظم الدفاعية.

وبشكل عام تنم كثرة القلاع والحصون في الأندلس عن الأخطار التي كانت تُحدق بها، وحرص الأندلسيّين على حمايتها من القوى الإسبانية المسيحية الشماليّة المتربّصة؛ فقلما تخلو منطقة مهمّة، أو مفترق طرق رئيس من قلعة أو حصن.ولا عجب؛فحياة المسلمين في الأندلس التي امتدت ثمانية قرون كانت -في مجملها- عبارة عن حروب ومعارك بينهم من ناحية -بفعل العصبيّة والتنافس على الملك والرئاسة-وبينهم وبين الممالك الإسبانية المسيحية من ناحية أخرى.

وكثير ما كانت الحصون الأندلسية تضاهي المدن، في كونها عامرة وآهلة بالسكان، ومن أمثلة ذلك حصن قيشاطة،وهو حصن كالمدينة، وله أسواق وربض عامر، وحمام وفنادق[١٨٢] .وحصن شقورة[١٨٣] ،الذي كان كالمدينة عامرًا بأهله، في رأس جبل عظيم متصل، منيع الجهة، حسن البنية، ويخرج من أسفله نهران: أحدهما نهر قرطبة المسمى بالوادي الكبير،والثاني هو النهر الأبيض الذي يمر بمرسية[١٨٤] ،علاوة على حصن بلشانة[١٨٥] ،وحصن بكيران[١٨٦] حصن منيع عامر كالمدينة، وله سوق مشهودة وحوله عمارات متصلة[١٨٧] .

وأمدنا الإدريسي بأسماء حصون عدة بها خيل ورجال متحصنون بها، ويقطعون أعمارهم في الغارات على بلاد النصارى الإسبان ،ومنها حصن قنطرة السيف، وحصن مدينة ترجالة ،وحصن مدلين[١٨٨] ،وحصن قاصرش[١٨٩] .كما أشار الإدريسي إلى الحصون العامرة التي كانت بين المدن الأندلسية، مثلما بين مالقة وقرطبة من الحصون العامرة التي هي حواضر في تلك النواحي، ومنها ارشذونة[١٩٠] وأنتقيرة[١٩١] ،وهما مدينتان أخلتهما فتن الثوار بالأندلس بعد دولة المنصوربن أبي عامر(٣٢٧ - ٣٩٢ هـ / ٩٣٨ - ١٠٠٢م)القائم بدولة بني أمية[١٩٢] وفيما بين جيَّان وبسطة ووداي

---

(١٨٢) الإدريسي،نزهة المشتاق، ص٥٦٩

(١٨٣) حصن شقورة Segura(من أعمال جيان) كالمدينة عامر بأهله،وهو في رأس جبل عظيم متصل منيع الجهة،الإدريسي، نفسه،ص ٥٦٠-٥٦١

(١٨٤) الإدريسي،نفسه،ص٥٦٠

(١٨٥) بلشانة هو حصن كبير عام،يصفه الإدريسي بأنه " له حصانة ووثاقة، وهو حصن يحيط به شجر الزيتون والمسافة بينه وبين حصن أشونة تقدر بحوالي ٤٠كم٢، الإدريسي، نفسه، ص٥٧٢

(١٨٦) بكيران حصن منيع يقع بالقرب من مدينة شاطبة ،وتصنع به ثيلب بيض تباع بالأثمان الغالية ويعمر الثوب منها سنين كثيرة وهي من أبدع الثياب و المسابغة بين بكيران ومدينة دانية ٨٠كم٢، الإدريسي،نفسه،ص ٥٥٧

(١٨٧) الإدريسي،نفسه، ص٥٥٧

(١٨٨) حصن مدلينMedellín يقع بالقرب من مدينة ماردة بمسافة ٩٠كم٢ تقريبا ومنه الى حصن ترجالة نفس المسافة الإدريسي، نفسه،ص٥٥٠

(١٨٩) تقع قاصرش Caceres جنوبي نهر التاجه وشمال شرقي بطليوس وغربي ترجالة وهو حصن منيع فيه خيل ورجال يغاورون فى بلاد الروم. الادريسى، نفسه ، ٥٤٦-٥٤٧-٥٥٠-٥٥١ ؛ محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، الطبعة الأولى،عصر المرابطين، القاهرة ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م القسم الأول،ص ١٤٠

(١٩٠) ارشذونة Archidona وهي قاعدة كورة ريّه،ومنزل الولاة والعمال،ومن مدنها مالقة وبينهما ٥٤كم٢ تفريبا، الحميري،الروض المعطار،ص٢٥

(١٩١) انتقيرة Antequera مدينة بها العديد من الحصون العامرة وتقع بالقرب من مالقة وبينهما ٧٠كم٢ تقريبا ، الإدريسي،نفسه،ص٥٧٠

(١٩٢) الإدريسي،نفسه ،ص٥٧٠

آش حصون كثيرة عامرة ممتدة آهلة، لها خصب وغلال نافعة كثيرة، ومن ذلك أن بشرقي جيان قبالة بياسة حصن شوذر[١٩٣]،وإليه ينسب الخلاط الشوذري[١٩٤] وكذلك حصن مرشانة[١٩٥] وهو على مجتمع النهرين،وهو من أمنع الحصون مكانًا،وأوثقها بنيانًا، وأكثرها عمارة[١٩٦]

وكذلك حصن طشكر[١٩٧]،الذي فاق حصون الأندلس الأخرى منعة وعلواً،ورفعة وطيب تربة وهواء، وليس لأحد موضع يصعد منه إلى هذا الحصن إلا موضعين،وبين الموضع والموضع اثنا عشر ميلا،وبأعلاه المناطق الخصبة والمزارع والبساتين.[١٩٨]

كما ألمح عن حصن الحمة،(قرب المرية) ،الذي كان في رأس جبل،ويذكر المتجولون في أقطار الأرض أنه ما مثل تلك الحمة في المعمور من الأرض،ولا أتقن منها بناء،ولا أسخن منها ماء.[١٩٩]

وحدثنا الإدريسي كذلك عن جزيرة تسمى إبلناصة، بالقرب من مدينة لقنت،على بعد ميل من البر،وأنها جزيرة ذات مرسى حسن، ومكمن لمراكب العدو[٢٠٠] وعن حصن المعدن، الذي على ضفة النهر من الجنوب، قبالة مدينة أشبونة؛وسمي بذلك لأنه عند هيجان البحر يقذف هناك بالذهب والتبر[٢٠١]، فإذا كان زمن الشتاء قصد إلى هذا الحصن أهل تلك البلاد فيخدمون المعدن (أي المنجم) الذي به إلى انقضاء الشتاء [٢٠٢]

وتشبه القصاب القلاع إلى حد كبير،غير أن القصبة أكبر مساحة،وهي من الحصون الحضرية- أي الواقعة في الحواضر-وعادة ما يقيم الخليفة أو الأمير في قصر بداخلها،فهي تقوم بدور الحماية للحواضر الكبرى، وتضم بداخلها قصراً محصنًا ،ومسجداً جامعًا، وجُبًّا، وحماماً[٢٠٣]،أما القلاع فكلمة كانت تطلق غالبًا على المواضع المحصنة في البوادي أو القرى البعيدة عن الحواضر.وكانت القلاع والقصاب كلتاهما تحاط في معظمها بأسوار منيعة[٢٠٤]

وفي كتاب الإدريسي أسماء قلاع وقصاب عديدة ، منها قلعة ببشتر[٢٠٥] الذي وصفها بأنها في نهاية الامتناع والتحصين والصعود إليها على طريق صعب وهي تتبع إقليم رية[٢٠٦] مما يعني أن

---

[١٩٣] شوذر بالأندلس من كور جيان،وهي قرية تعرف بغدير الزيت لكثرة زيوتها، الحميري،الروض،ص١١٧

[١٩٤] الإدريسي،نفسه، ص٥٦٩

[١٩٥] مرشانة Marchenaمن أعمال المرية وهو حصن يبعد عن المرية نحو ٣٦كم٢ الحميري،الروض المعطا،ص٥٤٢

[١٩٦] الإدريسي،نفسه،ص٥٦٧

[١٩٧] طِشكَر Tiscar بكسر أوله،وسكون ثانيه،وفتح كافه وهو حصن حصين في كورة جيان،ياقوت،معجم ،ج٤،ص٣٥

[١٩٨] الإدريسي،نفسه، ص٥٦٠

[١٩٩] نفسه،ص٥٦٧

[٢٠٠] الإدريسي،نفسه،ص٥٥٨

[٢٠١] التبرهو فتات من الذهب قبل أن يصاغ، فإذا صيغا فهما ذهب، وقيل هو ما كان من الذهب غير مضروب ، فإذا ضرب دنانير فهو عين. السبتي(أبو العباس أحمد العزفي(ت٦٣٣هـ)،حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد) تخريخ ودراسة محمد الشريف،منشورات المجمع الثقافي،أبو ظبي،١٩٩٩م ، ص١١٤،إبراهيم مصطفى؛وآخرون ،المعجم الوسيط،، دار الدعوة، استانبول، ١٩٨٩ م ، ج١،ص٨٤،

[٢٠٢] الإدريسي،نفسه،ص٥٤٧

[٢٠٣] مالدنادو، العمارة في الأندلس، ص ١٨٤-١٩٢

[٢٠٤] نفسه،ص ١٩٧

[٢٠٥] ببشتر: Bobastro قلعة منيعة، تقع على قمة جبل من سلسلة الجبال الواقعة بين رونده ومالقة، بالقرب من مالقة، جنوبي الأندلس وهو من أعمال رية بالأندلس،و بينه وبين قرطبة ثمانون ميلا،ابن غالب،المصدر السابق،ص٢٩٥،الحميري، الروض المعطار، ص٧٩

[٢٠٦] الإدريسي، نزهة المشتاق ، ٥٣٧-٥٧٠

الوصول آليها شاق وفيه معاناة كبيرة لمن يريد اختراقها و قلعة رباح[٢٠٧] على ضفة نهر يانة[٢٠٨] ،وقلعة مجريط، وقلعة أيوب[٢٠٩] ، وقلعة دروقة ،وقلعة مدينة جنجالة[٢١٠] التي يصفها الإدريسي بأنها حصينة القلعة منيعة الرقعة [٢١١].ويضيف الإدريسي أن قلعة مدينة طلبيرة من أرفع القلاع [٢١٢]،كما أشار إلى أن مدينة طليطلة لها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وقلاع منيعة[٢١٣] .وألمح الإدريسي إلى قصبة غرناطة التي شيدها الأمير حبوس الصنهاجي[٢١٤] ،وأكمل بناءها وعمرانها ابنه ابن باديس بن حبوس[٢١٥] من بعده ،ثم هناك قصبة مالقة، وبيورة، وطليطلة، ودانية. ثم المرية التي قال الإدريسي أن بأعلى جبلها القصبة المشهورة بالحصانة، وقصبة أوريولة[٢١٦] ، وغيرها كثير[٢١٧]

ويتضح من وصف الإدريسي للقصاب أن الطرق والممرات المؤدية إليها كانت في غاية الوعورة والمنعة، مثال ذلك قصبة جيان، التي يصفها بأنها قصبة من أمنع القصاب وأحصنها ،يُرتقي إليها على طريق مثل مدرج النمل [٢١٨]،وقلعة ببشتر،وهي قلعة يصفها بشدة التحصين،ويقول:" والصعود إليها على طريق صعب " [٢١٩]

والجدير بالملاحظة أن الإدريسي ركز بصورة واضحة على الحصون والقلاع والقصاب الواقعة في الجزء الجنوبي من الأندلس،ولعل ذلك يرجع إلى قوة دولة المسلمين في الأندلس خلال القرن٦هـ/١٢ ثم بداية الضعف و إنحسار الوجود الإسلامي في القرن ٧هـ/١٣، اذ لم يعد يشمل سوى مملكة غرناطة الواقعة في أقصى الجنوب،وأما تلك القلاع والقصاب فمردها الى الصراع بين الممالك المسيحية والمسلمين طيلة فترات العصر الإسلامي في الإندلس.

---

(٢٠٧) قلعة رباح: Calatrava وهي مدينة من عمل جيان، تقع بين قرطبة وطليطلة، وهي غربى طليطلة، ولها حصون على نهر يانة. ومن قلعة رباح الي قلعة أرلية يومان. ومن قلعة رباح في جهة الشمال الى حصن البلاط مرحلتان أي حوالي ٩٠كم٢. الإدريسي، نفسه، ص ١٨٦؛ الحميرى، المصدر السابق، ص ١٦٣

(٢٠٨) الإدريسي، نزهة المشتاق ، ص٥٥٠

(٢٠٩) قلعة أيوب Calatayud هي مدينة رائعة البقعة، حصينة شديدة المنعة كثيرة الخصب، وهي قريبة من مدينة دروقة بينهما ٣٦ كم، وبينها وبين سرقسطة ٦٤ كم، أمر ببنائها الأمير محمد بن عبد الرحمن لمواجهة تمرد بني قسي في سرقسطة.الحميدي(أبو عبد الله محمد بن أبي نصر(ت ٤٨٨هـ) ،جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ، تحقيق: ابراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت،١٩٨٩،م١،ص٤١ الحميري، الروض المعطار،ص ٤٦٩

(٢١٠) جنجالة Chinchilla هو حصن بشمال مرسية،الحميري ،الروض المعطار،ص١٧٤

(٢١١) الإدريسي، نزهة المشتاق ، ص٥٦٠

(٢١٢) نفسه،ص٥٥١

(٢١٣) نفسه،ص٥٥٢

(٢١٤) نفسه،ص٥٦٩

(٢١٥) باديس بن حبوس بن زيري بن مناد حكم دولة غرناطة بعد أبيه حتى سنة ٤٦٥هـ /١٠٧٢م ،وأصبحت هذه الدولة من أقوى دول الطوائف في عهده،شيد القصور في غرناطة وزاد في عمارتها، ويرجح أنه توفي سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٥م،ابن الخطيب،أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام المسمى بتاريخ اسبانيا الإسلامية، تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦م، ٢/٢١٢-٢١٤، خير الدين الزركلي،الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساءمن العرب والمستعربين والمستشرقين،ط١٥، دار العلم للملايين،بيروت،٢٠٠٢،ص٧٤،مريم طويل ،مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر٤٠٣هـ-٤٨٣هـ/١٠١٢م-١٠٩٠م،ط١،مكتبة الوحدة العربية ،الدار البيضاء،١٩٩٤،ص١١٩-١٦٩

(٢١٦) أوريولة Orihuela كانت قاعدة كورة تدميرقبل أن تختط مرسية سنة (٢١٦هـ/٨٣١م) ، ولما شيدت هذه المدينة نقلت القاعدة إليها،وأصبحت الكورة كلها تسمى مرسية،وهي على ضفة النهر الأبيض وتبعد عن مرسية بحوالي٢٤كم٢،العذري،المصدر السابق،ص١٠؛الإدريسي،نزهة المشتاق ، ص٢٨٣

(٢١٧) الإدريسي،نفسه، ٥٤٤-٥٥٨-٥٦٢-٥٧٠

(٢١٨) نفسه،ص٥٦٨

(٢١٩) نفسه،ص٥٧٠

الرباطات:

وهي مواضع ذات خاصتين: إحداهما حربية، والثانية دينية وتعليمية،الأول يتعلق بحراسة الرباط لمقاتلة العدو، بينما الثاني يتعلق بالجهاد في سبيل الله عن طريق التعبد وتنتشر عادة في مناطق الثغور وقرب السواحل؛ لحماية المنطقة أو الجهة التي يقع بها الرباط،ويقيم بداخله عادة بعض المتطوعة من المجاهدين،وبعض المتصوفة الزهاد والعلماء لتدريس العلوم الدينية وعلم التصوف،وأيضًا طلاب العلم من الغرباء،كما يضم بداخله مسجدًا وغرفا للإيواء والأمتعة والسلاح والعدة ،ومكتبة أو خزانة كتب،وبئر ماء،وبرجًا للمراقبة والحراسة[٢٢٠]

واشتمل الرباط أحيانا على مصلى منفصل،اضافة الى كونه مقرا لأحد الأولياء الصالحين وقد ازدهرت هذه الاربطة خلال عصر المرابطين[٢٢١] ومن أمثلة تلك الرباطات رباط روطة[٢٢٢] قرب شريش بكورة شذونة ،وكان مقرا للصالحين والزهاد، ورباط كشطالي الذي يذكر الإدريسي أنه كان حصينًا منيعًا،على البحر الشامي، وتتصل به عمارات ومزارع[٢٢٣]،ورباط القبطة بساحل بجاية قرب المرية،ويرابط فيه بعض المجاهدين لحماية سواحل تلك المنطقة.وعلاوة على ذلك وجدت رباطات أخرى لم يشر إليها الإدريسي خاصة في بجاية والمرية،وغيرهما[٢٢٤]

الخاتمة والنتائج :

بعد دراستنا لوصف الإدريسي لبعض مظاهر العمران في الأندلس نخلص إلى النتائج أدناه:

- يغلب المنهج الوصفي التحليلي في كتابات الإدريسي عن جغرافية المدن،فلا يُصدر فيها أحكاماً أو يبني نظريات على نتائج كما عند ابن خلدون مثلا.
- يطيل الإدريسي في وصف المدن التي زارها أو عاش فيها، بحكم معرفته التامة بها، مثل مدن الأندلس والمغرب وصقلية، ويستعمل عبارات تدل على ذلك،من قبيل:"وعاينا"، أو " وشاهدنا".
- مسجد قرطبة الجامع أروع آيات العمارة الإسلامية والمسيحية على السواء في العصر الوسيط؛ لما تضمنه من ابتكارات معمارية وثروات زخرفية.وهذا المسجد العظيم هو الأثر الوحيد الباقي كاملا في إسبانيا،ليشير إلى عصر من أزهى عصور تاريخها،كانت تنعم فيه بثمار بالحضارة وأنوار العلم،في الوقت الذي كانت الدول الأوربية الأخرى فيه تتخبط في ظلمات الجهل والانحطاط.كما أن بناءه يحتضن ويحفظ في عناصره ذلك المجد الذي بلغه الفن الإسباني الأموي .

---

[٢٢٠] مالدونادو، العمارة في الأندلس، ص ٢٢١،أحمد مختار العبادي،دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ،ط١،مؤسسة شباب الجامعة،الإسكندرية،١٩٦٨ ص٣٠٠، وراجع j.Oliver Asin origen arabe de Rebato Madrid,1928,pp.16-18

[٢٢١] مالدونادو،عمارة المساجد في الأندلس ، ص ١٤٦

[٢٢٢] روطة Rueda بضم الراء وفتح الطاء، أحد المعاقل الحصينة لمدينة سرقسطة، يقع غربى سرقسطة على الضفة اليسرى لنهر شلون Jalon أحد فروع نهر إبره الجنوبية، ويسميها ابن الأبار روطة اليهود. وهى الآن تابعة لمديرية وشقة. الإدريسي،نزهة المشتاق، ص٥٤٠،ابن الأبار(محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٨)،الحلة السيراء، حققه د. حسين مؤنس، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٣ ،ج٢ ، هـ ٢ ،ص ٢٤٨،٢٤٦؛ Codera, Decadencia y desaparicion de los Almoravides en España, Zaragoza, 1899, p. 261

[٢٢٣] الإدريسي،نزهة المشتاق، ص٥٥٥

[٢٢٤] مالدونادو،العمارة في الأندلس، ص٢٢١-٢٢٣ ، كمال أبو مصطفي، مالقة الإسلامية، ضمن دراسات مغربية وأندلسية،مركز الإسكندرية للكتاب ،١٩٩٣،ص٢١٨، كمال أبو مصطفي،تاريخ مدينة طرطوشة الإسلامية، ضمن كتاب دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ،مركز الإسكندرية للكتاب ،١٩٩٧،ص٩٠

- انفرد الإدريسي في دقة وصفه للمسجد الجامع بقرطبة،بمعلومات تفصيلية واحصائيات لا نجدها عند غيره

كما بينت الدراسة كيف وصف الإدريسي مظاهر العمران في مدن الأندلس، وفصل فيه تفصيلا دقيقا ،أفاد فيه مما عاينه وشاهده،فجاء وصفه لها وصفا مسهبًا ومفصلا، بما يوحي للقارئ بأنه زار هذه المناطق فعلا.

كما كشفت الدراسة عن العمارة المسيحية المتمثلة في الكنائس،خاصة كنيسة الغراب ،التي جاءت معلومات الإدريسي إليها وإلى غيرها من الكنائس مختصرة جدًّا ،فاكتفى بالإشارة إلى أن كنيسة الغراب تعود الى العصر الروماني،ويحمل إليها زوارها من الروم ما يحملون من المال، ويكرم القائمون عليها الزوار أيما كرم سواء كانوا من النصارى أو المسلمين.

كما انفرد الإدريسي عن غيره من الجغرافيين المسلمين بذكر بعض الآثار المدنية وعجائب مدن الأندلس الظاهرة،مثل القناطر والدواليب والأرحاء المائية الموجودة على الأنهار، والنواعير، والدواميس،وكذلك دار الطبيخ، ومن الآثار الظاهرة وعجائب مدينة ماردة الإرجالات، وهي أعمدة مبنية تجلب الماء الى القصر وهي تشبه قناطر المياه الرومانية في المدن الأسبانية القديمة .

والقت الدراسة الضوء على كثرة الحمامات وتحدثت عن الفنادق والأسواق في المدن الأندلسية، وأنه كانت منها أسواق للسلع الغذائية والعطور،ومنها الأسواق التي بها المصنوعات.

وأخيرا أوضحت الدراسة مظاهر العمران الحربي بصورة واضحة في الأسوار والأبواب والأبراج والقلاع والقصاب والرباطات الواقعة في مختلف جهات الجزء الجنوبي من الأندلس .

□

خارطة العالم للإدريسي

خريطة(١٨) نقلا عن أطلس التاريخ الإسلامي
د. حسين مؤنس،الزهراء للأعلام العربي،القاهرة،١٩٨٧م،ص٢٠

خريطة مدن بلاد الأندلس إعداد الباحث